خائنة تحت الحصار

تأليف

علي عمر خالد

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة
عماد سالم

المدير العام
أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج
أحمد عبد الحليم

الطبعة الأولى
الكتاب : خائنة تحت الحصار
المؤلف : علي عمر خالد
تصنيف الكتاب : رواية
تصميم الغلاف : محمد عطية
تصميم الداخلى : أبو مسلم عبد العزيز
المقاس ١٤ × ٢٠
رقم الإيداع :١٤١٥٢ / ٢٠١٨
الترقيم الدولى : 978 - 977 - 776 -694 - 4

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة
التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

الأحباب في الدنيا **قليلون** ، **أعظمهم** من يعطي بلا مقابل ، **وأقربهم إلى الفؤاد اثنين** : **أولهما** : **أرواح** رحلت ومازلت تطوقنا بدعواتها (**أبي وأمي**) وهم أصحاب الفضل والمنة بعد ربي ، **وثانيهما** إخوة وأسرة صغيرة **عمودها** زوجة صالحة **وأعضاؤها** قرة العيون : عمر وخالد وأحمد ، فهؤلاء مصدرة السعادة والإلهام في تلك الحياة .

علي عمر خالد

تنويهٌ

قد تكون بعض الأسماء الواردة تتشابه والواقع ، إلا أنها في الحقيقة من وحي خيال المؤلِّف ولا تمت للواقع بأي صلة ...

علي عمر خالد

مُقَدِّمَةٌ

رسالة إلى كل خائن وخائنة : هلموا أيها المخطئون في حق أنفسكم وأهلكم لتروا بأُم أعينكم أسماءكم مسطورة غير مشطورة بأحرف من نار سطرتها بيدي في **رواية خائنة تحت الحصار** .

فيا أيها الحقراء مهما قدمتم من أعذار فإن جرمكم غدار لا يستحق الشفقة ولا الغفران ؛ لأنكم خربتم الديار ، وجعلتم العقول تتشت وتحتار بعد خيانتكم للعشرة والجار ، فقد حولتم حياتكم وحياة من حولكم للهلاك والأخطار ؛ فذاق أطفالكم مرارة الذل الانكسار .

فاعلموا إن سلمتم من لعنة الأقدار فلن تسلموا من عقاب العزيز الغفار .

من خلال ما كتبت ستعرف عزيزي القارئ العلاقة الآثمة التي بدأت من تلك اللحظة الفارقة في حياة بعض الخونة

وكيف استمرت ؟ وإلى مدى ستنتهي هذا ما سوف نعرفه تباعا في القصة الحقيقية والغير حقيقية في أحداثها ، فبالتأكيد من يقرأها سيظن أنه عاصرها من قبل ، بل يعرف من هؤلاء الأشخاص ، إلا أنها غير حقيقة لأن ما ورد فيها من أسماء وأحداث هي من وحي الخيال ليس إلا ولا تمت للواقع بأي صلة .

لقد **خَرِبَت البيوت وتدمرت** بسبب **الخيانات الزوجية** التي انتشرت وذاع سيطها في الآونة الأخيرة بعد استخدام مواقع التواصل الاجتماعي من قبل المجتمعات العربية الذين اتخذوها وسيلة للفساد من خلال إقامة العلاقات غير السوية التي اتبعها لقاءات غير أخلاقية .

فقد فزعت وحزنت كما فزع وحزن غيري لبعض القصص التي عاصرتها ، فكانت صدمتي مدوية في كثير مما عرفت من الرجال والنساء ، فالصدفة البحتة هي وحدها التي أوقفتني على حقيقة بعض هؤلاء الخونة ، وما منعني من السكوت عليهم وعدم كشف عوراتهم هو عدم إثارة الفتن بينهم وبين ذويهم .

شرعت في **الكتابة** في هذه الرواية منذ **ثلاث سنوات** دون أن تكتمل ، فكنت أكتب منها جزءًا وأتوقف ، وكأن نفسي أبت أن تكملها بعدما أصابها الاكتئاب فكنت أشم رائحة العفونة تفوح وأنا أنوح أثناء كتابتها ، وكانت خيبة الأمل تقف أمامي بالمرصاد فتدور في فلكي مصرة على إيقافي ، لكن **إصراري على المواصلة** غلب بعدما عزمت أن **أدق ناقوس الخطر** لتلك الظاهرة حتى لا تقع كل زوجة شريفة وبنت صالحة في بئر الرذيلة .

فكلمة الخيانة لا أحبها ولا أحب سماعها أو كتابتها ، إلا أنها واقع لا مفر منه ، فهي من أصعب الكلمات الموجودة في قاموس اللغة العربية والتي نضطر لتداولها رغم صعوبتها على اللسان وعلى الجوارح بالنطق أو من خلال الشعور والإحساس ، **فالشريفة** تخشاها الأسود **والوضيعة** تهوى القرود وتخون المواثيق والعهود فلا تغلق على المرأة بابا عنيد

وحتى لا تضيع الخيوط منك عزيزي القارئ اعلم أن الرواية يرويها بطلها الكابتن **خالد** أحد ضباط مباحث الآداب ، فهو طيب الأصل والمنبت تأثر بما رآه من قضايا ، فراح يقتل نفسه هروبًا من الواقع المرير الذي عاش فيه بعد محاولته

الانتحار أكثر من مرة .

ذهب **خالد** إلى أحد الأطباء النفسيين لعلاجه بمساعدة أخيه وهنا تدور **أحداث الرواية** من خلال **عدة جلسات** عند أحد الأطباء النفسيين ، ففي كل جلسة قصة وقعت وأثرت في **خالد** حتى كادت تقتله لولا عناية الله ومساعدة الطبيب الذي ساعده على الخروج مما وقع فيه .

لن تشعر عزيزي القارئ بالملل ، **فكلماتي** سهلة خفيفة تستهوي السامع وتجذب القاريء ، لم أتكلف في الكتابة ولم أستخدم الألفاظ غير المفهومة ، وكذلك لم أستخدام أي إيحاءات أو عبارات خادشة للحياء من قريب أو من بعيد تمسكًا بقيم مجتمعنا المحافِظة على القيم والتراث ، فليس في وجوده في البيت من خطر فبإمكانك أن تصحبه معك في أي مكان ، أو زمان أثناء السفر ... كما أن الرواية تناسب مختلف الأعمار من الشباب والشياب .

علي عمر خالد

الرِّوايَةُ

البداية

وقفت سيارة الشرطة (البوكس) أمام قسم الشرطة بعد أن انتهيت من إحدى الدوريات ، فما أن وصلت حتى ترجلتُ منها وأشرت إلى القوة المعاونة معي نحو انزال المقبوض عليهن ووضعهن داخل الزنزانة ، وكان قلبي يعتصر ألمًا عندما أرى تلك اللحوم العارية من النساء والمراهقات وقد توشحن بوشاح الذل والعار فكنت أرى الضعف والهوان في عيونهن الفاجرة الذليلة بعد أن كسرتها الفضيحة .

كان يومًا عصيبًا شاقًا كنت قد بدأته منذ بذوغ الشمس حتى ساعات الليل الأولى لانشغالي بأكثر من قضية كنت أعمل بها حالت بيني وبين الراحة التي كنت أرجوها ، فلم أعمل مثل البقية الذين يؤثرون الراحة والأنتخة على الجد والعمل ، فكنت أجتهد حتى تتجلى الحقيقة لأرى العدل منشودًا أمام أعيني ، تجنبًا للوقوع في لُج الظلم والظلمات ، فالعمل الشُّرطي غاية في الوعثاء ، ومما زاد من وعثائه أني كنت أعمل في مباحث الآداب التي تبحث عن البيوت التي نُزِعَ حجاب الستر والشرف من أبوابها ، فكانت كل تعاملاتي مع عورات الناس وخاصة البغايا والساقطات منهنَّ ، فهؤلاء من اتهموا بقضايا مخلة بالشرف ، فقد أخذتهم الدنيا وأسقطتهم في بئر الرذيلة

والخطيئة .

فعملي أتاح لي التعامل مع جميع فئات المجتمع من طبقاته العليا والدنيا ، فجميع فئاته من علية القوم ومن رقاق الحال ، فكنت الوَجَلَةُ التي تستتر فيها الناس من برد الشتاء وقسوة الأيام .

ومما زاد من وعثائي ونصبي صراعي الدائر بين الهو والأنا فكان صراعًا يضربني كموجات البحر العاتية فأميل يمينًا مرة نحو تحقيق العدل ، وأميل يسارًا مرة نحو رقة القلب الذي كان يعتصر ألمًا في كل مرة أقبض فيها على امرأة ضعيفة ذليلية أسقطتها الدنيا بلا رحمة في قبضتي التي لا ترحم كل من أجرم وأخطأ في حق نفسه وأهله ومجتمعه .

فكنت أرى الضعيفات ممن لا قوت لهن وهن اللاتي لا يقدرن على توفير متطلبات حياتهن بعدما تنكَّر المجتمع لهن وأبى أن يمد إليهن يده ليساعدهن في الإفاء باحتياجتهن ، ومنهن من مات راعيهن تاركًا لهن كومًا من لحمٍ لا يريد من حطام الدنيا شيئًا سوى سد جوفه بكسرة خبز جافة تعينه كزاد وزواد على الصمود من الموت والهلاك فهؤلاء من ذرفتهم الدنيا

بلا رحمة وتركتهم في خضمها يصارعون من أجل لقمة العيش .

ومما زاد من ضغوطي الوعد والوعيد والتهديد من أصحاب الواسطة والمحسوبية ورجال الأعمال والواصلين والمتواصلين والمنتفعين ، فيأتي الاتصال خلف الآخر من جهات عليا في الدولة كي أصفح عن بعض المراهقين والمراهقات الذين أرفض واسطتهم فتسقط عليَّ اللعنات والتهديدات ولا أسلم من بعض التوبيخات التي يعقبها تنكيل وتأخير ترقيتي جزاء عدم الرضوخ لأوامرهم ورغم هذا لم أخالف ضميري ولو مرة واحدة ، فكنت أرى الله أمامي يراني ويرقبني وكأنه يُوحي إليَ بقوله : ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ [سورة النساء ، جزء من الآية (58)]

فثقتي بالله كانت ومازالت كبيرة ، لأني على يقين أنه من خاف الله لم يخف من أي شيء ، ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء ، فرحت أحقق مع كل القضايا التي قابلتها بكل حيادية وأمانة ومصداقية ، فلم أحابي أو أجامل أحدا على حساب أحد ، فالكبير عندي كالصغير والغني كالفقير في الحقوق والواجبات ، فالمجرم هو المجرم مهما كَبُرَ أو صغر .

ولهذه الأحداث وقعٌ في نفسي أثَّر عليَّ بالسلب فكاد يقتُلني القلق من قلة الراحة التي هجرتني بعد أن حل القلق مكانها برفقة الضيق الذي لم يكتفي بي بل راح يطارد زوجتي وأمي سارقًا منا كل لحظات السعادة والفرح بعدما تسلل الشك إلى قلبي رويدا رويدا ، فرحت أشك في كل شيء حتى أمي لم تسلم منه ، وزوجتي لم تعد تتحمل غيرتي الغير مبررة ، فلكما حادثت امرأةً رُحت أشتاط غضبًا بعدما أمسك الشيطان بزمامي وراح يحركها ويعبث بها كيفما شاء حتى عشت في عالم اللاواقع الذي رأيت من خلاله أشياءَ لا تمد للمنطق بصلة ، فدخلت في إشكاليات وقمت بتصرفات لاحظها الأهل والأقارب والأحباب ، ولكن هيهات هيهات فقد آبى الشك أن يتركني وحيدًا فلازمني كالقرين الذي يجري في دمي مجرى الدم .

زوجتي أكثر من عانت معي فكلما تصالحنا اختلفنا عدنا وتفرقنا بدون أي ذنب قد اقترفته بل كانت ضحية من ضحايا الشك الذي لازمني ، فأنا من كنت أفتعل المشاكل وأشعلها دون أن يكن لها قيمة .

ومما زاد من غضب زوجتي عليَّ علمها أني أفتش خلفها

في حقيبتها الشخصية بحثًا عن دليل إدانة لها ، فكنت كضابط مكافحة المخدرات الذي يبحث عن قرش حشيش يقدمه كدليل إدانة ضد المتهم لإثبات جريمته ، حتى ملابسها لم تسلم من فضولي فكنت أشتمها كلما حانت لي فرصة ، وهاتفها الذي أصبح صديقا لي بعدما أناثته وأستأنثته ، هكذا كان حالي مع زوجتي وتلك كانت الحقيقة التي لا مفر منها ، فأنا أعترف بسيطرة الشيطان على رأسي الذي راح يحركها كيفما شاء ووقتما شاء دون أن يوقفه أحد ، فوقعت أسيرًا في شباكه ، حتى ظل على هذا الحال شهورًا وسنوات دون أن أبدي له إلا السمع والطاعة .

لم يتوقف الشك عند زوجتي ، بل امتد لكل امرأة دنت مني واقتربت ، حتى أمي مستودع الرحمة والحنان من ضحت وتعبت من أجلي لم تسلم من شكي لها حتى أيقنتُ أن كل امرأة خائنة ، ووحدي أعيش وسط مجموعتين من الرجال العصاة والأخرى من النساء البغايا ، وأنا أقف بينهما أشاهد عن كثب ما يحدث بينهما من خيانة .

أصابني النصب والتعب من كثرة التفكير ، فكنت أدخن

السجائر ليل نهار بعد أن هجر النوم جفوني ومضجعي فتصلبت شراييني وأوردتي جراء شدة الأعصاب من آثار التدخين وقلة النوم ، فكرت في الانتحار أكثر من مرة حتى أرتاح من هذا العذاب الذي عشت فيه أمدا طويلًا ، وبالفعل قمت بعدة محاولات للانتحار معظمها فشل فنجوت بقدرة الله من الموت المحقق .

ومن هذه المحاولات تلك التي كانت بدأتها **عندما** كنت أسير بسيارتي على كوبري قصر النيل الذي يربط بين ضفتيه الشرقية والغربية وتوقفت في وسطه بحلكة الظلام ، الذي لم أرَ منه إلا ومضات بعض السيارات التي تمر كل حين وحين ، وفي تلك اللحظات التي غاب فيها القمر بعدما غفل ونام ولم يظهر ، وعند أعمق نقطة في النيل وسط الجسر بين طيات الظلام اتخذت قراري بالقفز عندما أمسكت بسور الكوبري المرتفع وهممت بالصعود وإذ برجل مسن يخرج لي من تحت الأرض ممسكًا بي طالبًا مساعدته ، فبدى كما لو كان غريقًا أمسك بقشة النجاة بكل ما أوتي من قوة .

- لو سمحت يا بُني أنا رجل في سن والدك أرجوك

ساعدني .

- سيبني يا والدي أرجوك ، أنا مش فاضيلك دلوقت .
- أتوسل إليك ، أنا والله ما شايف قدامي ، وتعبت من كتر اللف ـ وعايزَ أروح بيتي أستريح ، ومش عارف . أرجوك يا سعادة البيه ، عشان خاطر ربنا ساعدني .
- توقفت عند رجاء العجوز ملبيًا طلبه حاضر يا حاج اتفضل من هنا ، أنا هوصلك .
- ربنا يسترها معاك يا ابني ويوقفلك ولاد الحلال .

حملته وانطلقت به حتى باب بيته بإحدى المناطق العشوائية وسط القاهرة ، شكرني الرجل على ما فعلت وراح يمطرني بوابل من الدعوات لم يوقفها رغم رحيلي من أمامه .

المرة **الثانية** التي حاولت فيها الانتحار كانت داخل قسم الشرطة الذي كنت أعمل به ، وفي ساعات الشتاء الطويلة ومع اقتراب ميلاد يوم جديد بعد أذان الفجر بقليل ، وما بين فترتين إحداهما ينام فيها الناس ، والأخرى يستيقظون فيها وما

بين هذا وذاك قررت الانتحار ، فكل الظروف كانت مواتيه لأُلبي رغبتي في الرحيل عن دنياي ... تحركت على الفور من مكتبي ثم عرجت إلى أعلى القسم قاصدًا سطحه ، ركضت أعلى الدرج ركضًا حتى لا يوقفني أي شيء عن تنفيذ قراري الذي اتخذته مستعجلًا به قدر الله في الرحيل ، وعندما وصلت وجدت أحد المجندين (عسكري) جالسًا على الأرض متواريًا عن أنظار زملائه يغسل ملابسه خلسةً) .

- لما رآني ارتاب وارتبك وقالي لي : أنا تحت أمرك يا سعادة البيه ، بس بس كنت ببغسل الميري عشان اتوسخ .
- متخفش يا بني محصلش حاجة .
- تأمر بحاجة يا سعادة الباشا .
- لا لا شكرا يا بني ، كمل غسيلك .

صدمت من رؤية المجند الذي بدى وكأنه ينتظرني لمنعني من تنفيذ ما عقدت العزم عليه ، رجعت أدراجي إلى مكتبي باحثًا عن طريقة أخرى أُزهق بها روحي ، حتى أستريح من

عناء هذه الحياة المتعبة باحثًا عن مخرج للهروب منها وبشتى الطرق .

المرة الثالثة جاءتني فكرة شيطانية مرت أمام ذاكرتي فالتقطتها بسرعة البرق فقررت أن أسير عكس السير كي أصطدم بسيارة أخرى فأموت وارتاح ، بعد انتهاء عملي بالقسم عقدت النية عندما دقت عقارب الساعة التاسعة صباحا وبعد وصول زميلي البديل انطلقت متخذًا طريقا معاكسا لسير السيارات من خلال انطلاقي عكس السير بسرعة 140 كيلو / الساعة بعدما شمرت عن ساعدي وفتحت أزرار قميصي ورحت أتنفس بعمق بحثًا عن الراحة التي أحلم بها ، قُدتُ السيارة بجنون كي أرتطم بعنف بأي سيارة أو بحوافٍ خرسانية أو جسر ، فأتطاير لأعلى وأسقط أرضًا وأموت .

ومن حُسن طالعي لم أواجه أي مصدات خرسانية أو جسور أثناء سيري الذي لم يستغرق أكثر من دقيقتين ليحدث أمرًا مدهشًا وهو توقف سيارتي عن الحركة دون أي فعل مني فجُنَّ جنوني وقلت في نفسي : هو داه وقته ، ترجلت من السيارة لأكتشف أن خزان الوقود فارغًا تمامًا من الوقود واستمريت

عـلى قيـد الحيـاة حتـى إشـعار آخـر ، ليجلـب لي أحـد الأصدقـاء قليـلًا مـن الوقـود ، ثـم يصطحبنـي إلى بيتـي ، وتفشـل خطـة الانتحـار **الثالثـة** فشـلًا ذريعًـا كـما فشـلت مـن سـبقتها .

وصلـت إلى بيتـي وأوصـدت نوافِـذَهُ حتـى لا يتسـلل إليهـا لصـوص الراحـة الصـوت والضـوء ، ثـم نمـت عـلى سريـري بعـد أن أغلقـت جفـوني رغبـةً في قسـطٍ ولـو قليـل مـن الراحـة التـي سـألتها أن تـأتي لترحمنـي مـن عـذاب الشـك والريبـة والقلـق الـذي وقـف حاجـزًا بيننـا فأثـار غضـب الراحـة التـي أبـت أن تـأتي ظنًـا منهـا أني آثـرت القلـق عليهـا ولم تعلـم أني مظلـوم أسـترجيها أن تـأتي وكأنـه حـوار بـين حـي وميـت كلاهمـا يريـد أن يتواصـل مـع الآخـر فكلاهمـا يتحدثـان ولكـن لا يسـمع أحدهـم الآخـر .

امتطيـت جـوادي وركضـت في الصحـراء الموحشـة بـلا أنيـس ولا ونيـس ولا زاد ولا مـاء أبحـث عـن واحـة أو طريـق لـه نهايـة ولكنـي لم أجـد ضالتـي وفجـأة أمسـك أخـي أحمـد بيـدي فـكان ضالتـي ومنقـذي مـن الهـلاك بعدمـا أخرجنـي مـن تلـك الصحـراء الموحشـة إلى الحيـاة التـي تنعـم بالـزرع والمـاء ، فـكان أخـي أحمـد الواحـة التـي وجدتهـا في حيـاتي التـي لم تختلـف عـن صحـراء لا

بداية ولا نهاية لها ، لأجد أخي ينتشلني من تلك الوحشة المظلمة إلى النور الهادي ، ولأحمد مكانة كبيرة في قلبي فكان نعم الأخ الحنون والصديق الوفي ، فأجبرني على الذهاب لأحد الأطباء النفسيين وأخذني لأحدهم عنوةً رغم رفضي الشديد لهذه الفكرة ، التي لم أكن أتوقع يومًا أن أكون أنا أحد أبطالها زائرًا لأحد هؤلاء المجانين كما كنت أظن ويظن غيري من أبناء المجتمع ، وجاء تدخل أخي بعد أن بلغ الخطر مداه ودب القلق أفئدة الجميع .

ذهبت إلى الطبيب النفسي وكان أخي مضطربًا ويتصبب عرقًا خشية أن يصيبني مكروه من ثورة الشك التي لازمتني والتي أدت لسعيي خلف الانتحار الذي تركته تلبيةً لطلب أخي الذي أحبه حبًا جما ، فقد توسل إليَّ بكل شيء للعدول عن فكرة الانتحار ، حتى استجبت لتوسلاته وعزفت عن فكرة الانتحار .

الجلسة الأولى

سعاد تقتل أطفالها

ذهبنا معًا أنا وأخي أحمد إلى الطبيب ، فأدخلني الأخير إلى صومعته الباردة الخافتة الإضاءة ، طالبًا من أخي الانتظار خارجها ، ثم طلب مني الطبيب أن استرخي واستريح بعدما رحب بي عندما دخلت بكل أدب ولياقة ، استجبت له طواعيةً واسترخيت على أريكته المريحة التي امتصت كثيرًا من توتري ونصبي ، ومما ساعدني على الاسترخاء ضوء الغرفة الخافت الذي يستجدي فيك الحيل الواحدة تلو الأخرى كي تسترخي وترخي عضلات جسدك المتعب ، فيتسلل إليك الضوء المصحوب بنسمات الهواء الباردة رويدا رويدا حتى تستجيب له ولحيله دون أن تشعر ، شعور غريب أصابني دفعني للنوم وخاصة بعد أن اندفع هواء التكييف ولطمني على وجهي بموجاته الباردة في زمهرير الصيف الحار ، فرحت أسترخي وأسترخي وأستمر في الحديث والاسترخاء رغم انفعالي وقد أجهشت في البكاء دون أن أشعر ، ثم عدت لرشدي وهدأت لأواصل الحديث مع الطبيب عن معاناتي التي أصبحت جزءًا لا يتجزأ من حياتي .

في البداية طلب مني الطبيب أن أتكلم وأخرج كل ما بصدري متعهدًا بحفظ كل ما يخرج من فمي في بئر أسراره وكتمانه ، كما تعهد أنه لن يقاطعني أثناء حديثي له ، إلا إذا طلبت أنا منه ذلك .

- كابتن خالد ، أهلًا وسهلًا بيك .
- أهلا وسهلًا يا دكتور .
- إنت طبعًا أو مرة تشرفني بالزيارة .
- آه ، فعلا .
- كابتن خالد : إنت ما شاء الله عليك شاب خلوق ومحترم وابن ناس ، وأنا أعرف الوالد كويس الدكتور علي سيطه ما شاء الله مقالاته وكتبه في كل مكان في البلد .
- ربنا يبارك في حضرتك يا دكتور .
- كابتن خالد ، خُذ نفسك بارتياح واسترخي خالص ، وأي كلمة تضايقك متحكهاش ، وعايزك تثق تمامًا أن

كلامك اللي هتحكيه لا يمكن أن يطلع لأي مخلوق في الدنيا .

- حاضر يا دكتور
- اتكلم في أي حاجة حابب إنك تتكلم فيها ، وشوف عايز تبدأ من فين ، أنا هقعد أسمعك ، لو طلبت مني التدخل هتدخل غير كده أنا مش هتكلم خالص ، ولو عايز تدخن خد راحتك السجاير جنبك على الطاولة .

أنا شاب ملتزم من يوم ما خرجت إلى الدنيا وأنا بعشق الالتزام واحترام القوانين واحترام الآخرين ، ، وهذا ما نشأت عليه في بيتنا الذي كان ينعم بالهدوء والاستقرار ، فكان أبي يدقق في تربيتنا على احترام الكبير والصغير وعدم الخوف إلا من الله ، لأن القدر سيقع سيقع بالناس أو من غيرهم فهو بيد الله وحده

وأنا إنسان بسيط أكره الظلم كما تكره الشعوب العرب إسرائيل وخاصة إن كان الظالم من أصحاب النفوذ الأقوياء ، وكان المظلوم من الأرقاء الضعفاء ، وهذا ما آلفت الناس عليه في أيامنا ، فأنا أحب أن يأخذ كل إنسان حقه ، وكان التزامي سببًا

في تفوقي في كلية الشرطة نظرًا لطبيعة نشأتي التي كانت تتوافق ومتطلبات الكليات العسكرية من حيث الالتزام والانضباط ، ومن أجل ذلك كنت أقل زملائي تضررًا من التدريبات الشاقة التي كنا نتلقاها هناك ، مرت الأيام وانتهى عهدي بالجامعة إلى أن تخرجت والتحقت بمباحث الآداب ، وعملت في أكثر من بلد آكان في أحد الأقسام التابعة لمديرية أمن الجيزة ، وذات يوم جاءنا اتصال هاتفي من شخص مجهول يبلغنا بوجود مجموعة مختلطة من الشباب والشابات يقيمون حفلًا صاخبًا بفيلا لأحد الأثرياء بإحدى المناطق المتطرفة والتي تقع في نطاق المديرية ، وقد أكد الشخص المجهول على أن صرخاتهم تتعالى من حين لآخر ، ولا يدري إن كانت الصرخات أطلقت للاستغاثة أم إنها نتيجة المتعة أو الخمور التي احتسوها بكثرة أثناء تلك السهرة .

عندما تلقيت المكالمة وعلمت أن المكان يخص أحد عِلية القوم قررت أأمن نفسي جيدا من حيث صحة الإجراءات وإذن النيابة ، تحركت وأنا أدعوا الله أن يسترها وأن يرحمنا من الصداع الذي سيتولد بعد إلقاء القبض عليهم وكذلك الضغوط والتهديدات ، وصلت إلى الفيلا وكانت تقع على حافة منطقة

الهرم في إحدى الأماكن الهادئة ، وكانت الفيلا أشبه بالبيت الأبيض الذي منه يقاد العالم فتتعجب من كون هذا المكان في بلدنا الفقيرة فكيف بناه أصحابه وكم تكلف ؟ وقفت أمام الفيلا وأنا أنظر إلى جمال تصميمها المعماري الذي كسي باللون الأبيض فكان يشع نورًا كالقمر في ليلة حالكة الظلام فما أجمل الفيلا ؟ ! وما أجمل نوافذها الزرقاء الطويلة التي كانت كالنجوم في السماء ويحيط بها سور كبير أبدع من صممه ولوّنه وبناه ، توقفت وزاد قلقي أكثر عندما رأيت هذا المكان الرائع ، إلا أني تذكرت كلام أبي من خاف الله لم يخف من أي شيء ومن لم يخف الله أخافه الله من كل شيء .

- توكلت على الله فوجدت بعض حراس الأمن الذين دنوا منا عندما اقتربنا منهم ومن المكان ليسألونا بغلظة من أنتم ؟ وماذا تفعلون هنا ؟
- رد عليه أحد أفراد القوة ، إحنا مباحث ، افتح يا بني الباب .
- رد أحدهم مستهزءًا ابن مين ومباحث مين ! يالله يا شاطر منك ليه خدوا بعضكم واتوكلوا على الله من

هنا ، شكلكم كده مش عارفين دي فيلا مين ؟

- هنا تدخلت بغضب عندما اندفع الدم في عروقي بقوة بسبب انفعالي الذي أحدث ثورة داخلية في جسدي بينه وبين دمي ، فحرك الدم عُنوةً مصحوبًا بحالة من الغليان حتى خرج الغضب بكامل هيئته وتحكم فى أرجاء جسدي ووجهي ولساني ورجلي ... فقلت : افتح يا ابن المرة أحسن اضرب أمك بالجزمة .

- هنا ارتعد حراس الفيلا ذعرًا ، ففتحوا الباب خائفين بعدما رفعوا أيديهم التي ترجف ، ووضعوها جانب رؤسهم يؤدون لي التحية ... اتفضل يا باشا .

ركضت باب الفيلا في غضب ودخلت ، وإذ بأصوات المعازف تملىء المكان صخبًا وضجيجًا وكما قال المتصل المجهول ... الصرخات والضحكات مختلطة تقف وتتواصل بلا سبب ، أخذت وقتًا وأنا أمشي بصحبة قوتي وأحد حراس أمن الفيلا ، وكأن الطريق طويلا من باب الفيلا حتى مدخلها فلا يريد الطريق أن ينتهي ، ولست أعلم لماذا ، هل لسيطرة الخوف على قلبي ، أم لاتساع الحديقة التي كانت تتجمل بالنخيل

والأشجار المثمرة التي كان العطر يفوح منها ليملأ المكان بالفل الياسمين ، ورغم خوفي إلا أني تمنيت لو كنت من سكان هذا المكان أقم فيه ولو لبضعة أيام بعدما استأنسته وأستأنثني وصارت بيننا أُلفة توحي بأننا ثمة علاقة كانت بيني وبينه منذ عقود مضت ، حينها تعجب من خلق الرحمن وسألته أن يجعل مسكني في أعلى الجنان .

وصلنا أخيرا بعد فترة من السرحان والتعجب لباب الفيلا الداخلي وكان بابًا حديديًا كبيرًا مفتوحًا على مصرعيه ورائحة السجائر المحشوة بالمخدرات تملأ الهواء غبارًا وأدخنة حتى كنت أراها تفر هاربة إلى الحديقة كاللص الذي تطارده الشرطة فتجري خلفه لتقبض عليه هو يجري بكل قوته كي لا يقع في أيديهم ، دخلت المكان الذي كان يشع نورًا من النجف الذي حلى أسقف الفيلا كالآليء ، ووجدت مجموعة من المخمورين الفاقدين للوعي بعضهم افترش الأرض ، وبعضهم أضجع على الأرك – جمع أريكة – والجميع في حالة ضحك وهوس بطريقة نمت عن غيابهم التام عن الواقع .

كل هذا وأنا أحاول أن أستوعب ما أرى من النساء

الكاسيات العاريات التي لم أشاهدها من قبل إلا في الأفلام والمسلسلات ، إلا أن إحدى الفتيات الشبه عارية ترجّلت من أعلى الدرج لأسفله يتبعها رجل مخمور يلهث خلفها كالكلب وهي تضحك ضحكات الغانيات وهو يسترجيها أن تقف ويكاد يقبل قدميها إلا أنه لم يحصل على منالـه منها .

من المثيرات أيضاً لم تكن ضحكاتها فحسب بل ما كانت تلبس ، فلم يستر جسد الفتاة العاري إلا قطعتين صغيرتين من القماش كانا يستران جزءً صغيرا من جسدها ، ظلت الفتاة تسقط وتقف وتسقط حتى دنت مني وكادت أن ترتمي في أحضاني دون أن تدري ورائحة المسك والخمر يفوحان من جسدها الممتلىء الذي كانت تتحرك بعض أجزاؤه كقطعة من الجيلي الذي يهتز دون أن يقع على الأرض ، أشرت على بعض العسكر بأن يتبعوني فصعدت إلى أعلى الدرج التي ترجلت منه الفتاة ، من أسفله لأعلاه .

وما أن صعدت إلى قمته حتى رأيت أكوامًا من اللحم مختلطة بعضها ببعض ، تكاد لا تميز الرجل من المرأة فالكل عَريا كما ولدتهم أمهاتهم ، والمضحك أنهم لم يشعروا بوجودنا

قط ، فأطلقت صرخات مدوية رجت أركان المكان وأحدثت به زلزالا عنيفًا هز القلوب قبل الجدران ، فتذكرت اسرافيل ملك النفخ في السور عندما يصرخ صرخته الأولى فيصعق من في السماء ومن في الأرض بأمر ممن لا يغفل ولا ينام ، مات العرايا رعبًا وخوفًا مني خشية الفضيحة ، فركض من ركض منهم بحثًا عن شيء يسترون به أجسادهم العارية بعدما كانوا يمارسون الجنس كالبهائم دون حياء أو خجل من بعضهم البعض ، فاستنكرت فعلتهم التي زادتني اسرارًا على تطبيق القانون عليهم ليكونوا عبرة لمن يعتبر ، ولم أعلم أن تطبيقي للقانون سيجر عليَّ الويلات والتهديدات .

أقتدتهم جميعًا وأنا أسوقهم كالبهائم إلى البوكس ، رغم أن البهائم لم تكن بهذا الذل والخزي الذي كانوا هم فيه رغم أني سترتهم بفرش السرر ، وطلبت من أحد العساكر بجلب ملابسهم جميعًا إلى القسم لأستر ما أستطيع أن أستر من النساء العرايا ، ما إن وصلنا القسم حتى تغير هواءهُ فكان دخولهم إليه كدخول الربيع الذي يأتي بنسماته وروائحه العطرة التي تملأ المكان والأركان ، ولم يمض من الوقت إلا دقائق معدودة حتى

ضج جرس الهاتف بالرنين الذي لم يتوقف كما كنت أتوقع ، ورغم تجاهلي له إلا أنه لم يتوقف عن الصراخ والضجيج ، فتحت محضرًا دونت فيه أسماء المقبوض عليهم ، ورغم إدانتهم إلا أنهم لم يشعروا بالتوتر بل كان حديث بثقة وإن كان شديدا غليظا به بعض العبارات المبطنة بالتهديد والوعد والوعيد في بعض الأحيان ، والبعض الآخر جهرًا مهددا إياي بقوله ... إنت إزاي تتجرأ وتقبض علينا وتجيبنا هنا ، إنت هتتحاسب على كل اللي عملته ، وبينما تدور رحى الحديث إذا بالهاتف لا يتوقف عن الضجيج ، فاستجبت لكثرة زنه وأجبت المتصل في غضب .

- الو ، مين معايا
- الو ، خالد بيه علي ؟
- ايوه خالد معاك ، اتفضل .
- معاك حسن علام عضو مجلس الشعب (من الشخصيات المعروفة في البلد) .
- أهلا وسهلا يا سيادة النائب .

- يا خالد بيه كان فيه سوء تفاهم واحنا عايزين نصلحه قبل الموضوع ما يكبر .
- سوء تفاهم إياه .
- خالد بيه انت قبضت على شوية شباب عندي من الدايرة والناس دي تخصني ، وأكيد أنت عارف الدايرة بتاعتي فيها مين وولاد مين في البلد ، فبهدوء كده خرجهم من القسم ، وأنا هعتذرلهم بالنايبة عنك ، وهفهمهم إن الموقف مش مقصود ، ويا دار ما دخلك شر ، فاحنا هنخرجهم كده بهدوء قبل ما الصبح يصبح والموضوع يكبر ، عشان العيال دي لو مرحتش بيوتهم دلوقت الدنيا هتولع فوق دماغك .
- إنت بتهددني يا سيادة النائب ولا إيه !
- العفو يا باشا ، أنا بنصحك بس .
- والله يا سيادة النائب ، أنا ضبطهم في أوضاع مخلة عرايا وبيحششوا كمان .
- معلش شوية شباب وكانوا بيتبسطوا يا سيدي ، واحنا

لما كنا في سنهم كنا بنعمل أكثر منهم .

- للأسف يا حسن بيه مش هينفع يطلعوا خالص .
- إنت أكيد بتهزر يا بيه ، صح .
- لا والله ، أنا بتكلم بجد ، والعيال دي مش هتطلع من هنا ، ولازم القانون يطبق على الكبير والصغير في البلد ، ولا إيه يا سيادة النائب .
- إنت مش عارف دول ولاد مين في البلد ، قانون مين وبتاع مين ؟ انت فاكر نفسك فين يا بيه .
- أنا عارف إني في مصر ، ومعلش فيه سؤال كده محشور في زوري يا سيادة النائب ... ما أنا الأسبوع اللي فات قبضت على عيل من الدايرة بتاعتك وكانت حالته على قدها ، ولما أهله طلبوا منك أنك تدخل كلمتني وقلتلي طبق القانون يا خالد بيه ، وأنا طبقت القانون ، إيه اللي حصل ؟ ولا القانون على ناس وناس .
- يا خالد بيه ، الأولاد دول غير ، دول ولاد ناس ، لكن التانيين من عامة الشعب .

- آسف يا سيادة النائب ، أنا حقيقي آسف .
- ماشي بس متزعلش .
- لم تمر إلا بضع دقائق ، حتى عاود جرس الهاتف ضجيجه مرة أخرى ، فجاوبته بسرعة كي لا يصيبني بالصداع كما فعل من قبل ... الو ، ايوه يا بني ، ادينـي خالد علي من عندك .
- ايوه يا افندم ، معاك خالد علي ، مين معايا ؟
- معاك اللواء رأفت عز الدين (من إحدى الشخصيات الكبيرة بوزارة الداخلية) .
- أهلا وسهلا معاليك .
- ايه الهرجلة اللي عاملها يا بيه في شغلك ، ظبط شغلك يا افندي وابقى ميز وانت بترمي بلاك على الناس ، واعرف اللي عندك دول ولاد مين في البلد قبل ما تقبض عليهم ، هقفل التليفون تكون العيال دي كلها خرجت من القسم وفي طريقها للبيت ، ولو اتكرر الموقف داه تاني هنفخ أمك ، سمعت يا زفت .

- آسف يا معالي الباشا مش هقدر .
- وحياة أمك ، انت بتستهبل ولا أنت أهبل ، طايب وحياة أمك أنا يا هلبسك البجامة وأقعدك جنبها في البيت عشان تعرف قيمة نفسك .

أغلق اللواء رأفت الهاتف في وجهي بعدما خرمت كلماته طبلة أذني بكلماته التي مسح بكرامتي وكرامة أهلي الأرض ، ولمت نفسي وعنفتها بسبب سكوتي عن إهانة اللواء رأفت ، ورحت أثيرها وأفتنها كي تنتقم وتسترد كرامتها التي بعثرت أرضاً إذا أتت لها فرصة للانتقام ورد الصاع صاعين .

لم أكتفي بإثارتها فحسب بل رحت ألومها ببعض الكلمات ... لو أنت رجل ما سكت على سبه لك ولأهلك وأنت تقف مع الخزي والعار دون أن تدافع عن أمك وأبيك اللذان ضحيا من أجلك ، فمهما كانت العاقبة ما كان لك أن تسكت ، فماذا سيكون مصيرك ، هل سيقتلوك أقصاها مجلس التأديب ، ولكن وقتها سأكون ظفرت بحقي واستعدت كرامتي التي بعثرت .

لم تتحرك عقارب الساعة كثيرا حتى حضر ثلاثة محامين من أصحاب الياقات الزرقاء الشيك إلى مكتبي يتبعهم رهط من الرجال والنساء تبدو على ملامحهم علامات الوجاهة والأناقة ، وكأنهم هبطوا من أعلى لأدنى ، فبمجرد دخولهم القسم فاح العطر وانتشر في أرجاء المكان معلنًا عن وصولهم ، وكأن باقة كبيرة من الزهور حلت على المكان ، فدفعت وحركت ذرات الهواء الراكض الذي كان يحمل في طياته عرق العاملين بالقسم من المجندين والمخبرين وبعض رقاق الحال الذين توافدوا على المكان .

سرعان ما انتصرت الرائحة الجديدة على الرائحة القديمة دون أن تأخذ وقتًا طويلا فموازين القوة كانت في صالح الرائحة الجديدة التي بين ثنياتها الفل والياسيمن ، فمظهر هؤلاء يقول أنهم من علية القوم ، لأن الأناقة والمظهر المنمق والروائح التي تفوح منهم دلت عليهم دون أن يقدموا لي أنفسهم ، فقد رجوا المكان رجًا .

بدأ الثلاثة محامين بالطعن في صحة إجراءات القبض التي قمت بها طالبين الإفراج الفوري عنهم في حين لم يخلوا حديثهم

من بعض العبارات اللطيفة المبطنة بالتهديد والوعيد حينها لم أتمالك نفسي وقفز العرق الصعيدي من قمقمه كالبركان الثائر الذي لا يخشى أي أحد أمامه ، فانتفخت عروقي وأحمر وجهي وتولدت لدي طاقة غضب بقوة 500 ميجاوات بمقياس الكهرباء ، فأغلق تفكيري بقفلٍ مُسوجر – قفلت معايا .

انتوا بتهددوني يا بهوات طبعا ، طايب طز فيكم وفي اللي وراكم ، وأي حد فيكم هيقل أدبه معايا هضربه بالمركوب (حذاء باللهجة الصعيدية) ، ثم صحت بأعلى صوتي الذي كاد يلامس السماء من قوته وارتفاعه ، وكأنه دانة مدفع انطلقت لتقذف من يقف أمامها : انتوا بتهددوني وفي مكتبي ؟ اطلعوا بره ، أنا مش عايز زيطة هنا ، أنا لسه منتهتش من التحقيق ، ياله بره مكتبي أحسن والله أرميكم في الحجز مع الزبالة اللي جايين تدفعوا عنهم .

- وواصلت الصراخ على الخدمة القابعة خلف باب مكتبي . . يا حسين : أنتَ يا زفت : هاتلي العيال ولاد الكلب اللي في الحجز ووقفهم هنا قدامي زي الكلاب .

جلبهم حسين بسرعة البرق ، وكأنه جن سليمان الذي أحضر عرش بلقيس ملكة سبأ إلى مقر سليمان في طرفة عين ، وصفهم صفًا أمام مكتبي الخشبي كالبنيان المرصوص كالجماد لا يتحركون ولا يتهامسون فقد أصابهم الرعب والخوف من صوتي المزعج .

- أقسم بالله يا هتتعلموا الأدب هنا ، وأنا ميهمنيش لا كبير ولا صغير في البلد دي ، يا زبالة يا حسالة ، لو كنتم ولاد ناس مكنتش قبضت عليكم عرايا يا شوية أوساخ ، وعليَّ الطلاق بالثلاثة لو قفلت معايا يا هضربكم بالنار ، وايه يعني ! شوية كلاب وغاروا في داهية .

صُعِقَ الشباب من صراخي ، فبدوا وكأنهم بالوا على أنفسهم من شدة الخوف والزعر الذي سيطر عليهم بعد أن ظنوا أني مجنون فازدجروا عن الكلام ، فليس هناك عاقل يفعل ما فعلته .

- لم يتنفسوا الصعداء إلا بعد أن ركل اللواء رأفت باب

مكتبي برجليه صارخًا : فين الزفت اللي اسمه خالد ، فكانت صيحاته مدوية أشبه بتلك التي أطلقها ضباط الأمن المركزي في وجه المتظاهرين إبان ثورة 25 يناير الفاشلة في تحقيق أهدافها قاصدًا أن يبث الرعب في قلوبهم .

- تمام يا افندم خالد معاك .
- ايه يا محترم ، إنت مش شايف شغلك ليه ؟
- أنا شايف شغلي كويس يا افندم .
- أنت هترد عليَّ كمان .
- لزمت الصمت ولم أتفوه بكلمه ، إلا أنه واصل صراخه وكأنه أصيب بموجة صرع فراح يشوح بكلتا يديه يمينًا ويسارًا متلفظًا ببعض العبارات الغير لائقة ، إنتَ عاملي فيها دكر ! طايب أنا هعلمك الأدب .
- ممكن يا افندم أعرف أنا غلطت في إيه .
- اجراءات الضبط بتاعتك غلط يا افندي .

- لا مش غلط يا افندم ، أنا واخد إذن نيابة قبل ما اتحرك .
- مش كفاية يا أفندي ، ضبط شغلك كويس ، وطلع الناس اللي قبضت عليهم مش ناقصين مشاكل .
- يا افندم ، افرج عنهم ازاي وهما متلبسين .
- حتى لو كانوا متلبسين اجراءات غلط يا افندي ، ياله بلاش كلام فاضي طلع الناس وبلاش مسخرة .
- آسف يا افندم ، مش هقدر .
- إيه ، يعني إيه مش هتقدر ؟ إنتَ بتستهبل ، ولا نسيت نفسك ؟
- أنا لا بتسهبل ولا نسيت نفسي ، أنا بقلك مش هطلعهم .
- نعم يا روح أمك ، سمعني تاني .
- تاني يا افندم ، أنا مش هطلعهم .
- الظاهر إنك نسيت نفسك يا روح أمك ؟

- قفزت من على كرسي مكتبي ثم ضربتهُ بيدي بقوة كادت أن تحطمه بعدما نظفته من التراب والغبار الذي كان يقبع فيه منذ أمدٍ وسنين .
- أشرت في وجهه بإصبعي ... أنا منسيتش نفسي ، وأنت عارف داه كويس .
- اللواء رأفت : أنت هتعرفني اللي أنا معرفهوش يا حيوان .
- أنا مش حيوان .
- لا ، حيوان وستين حيوان .
- أقسم بالله العلي العظيم ، لو قليت أدبك معاي مرة تانية لأكون ضاربك بالنار ياابن الكلب يا وسخ .
- انت بتتعدى عليَّ أنا ، والله يا اطلع عين أمك .
- أنا اللي هطلع عين أمك وهفضحك في كل خن في الوزارة ، عشان أنا عرفت إن بنتك الوسخة وسط الزبالة دول .

- رسخ اللواء رأفت في مكانه بلا حركة لبضع ثوان ، فتحوَّل لون وجهه لخليط ما بين الأصفر والأحمر ، ليتدخل عمرو زميلي المناوب مهرولًا نحو اللواء رأفت ... استريح يا باشا وكله هيكون تمام ، ومدايقش نفسك ... ليمون يا حسين للباشا بسرعة ، يا أهلا يا أهلا معالي الباشا ، والله القسم نور واتشرف بوجودك هنا ، اتفضل اتفضل معاليك في مكتبي اتفضل يا باشا اتفضل .

اصطحب زميلي عمرو اللواء رأفت وذهبا معًا إلى المكتب المجاور لمكتبي ، ولم يمضي من الوقت كثيرا حتى جاءت إشارة من الوزارة أفادت بنقلي من القسم إلى آخر غيابات إحدى القرى الريفية التابعة لمحافظة الجيزة ، وهذا ما توقعت حدوثه بعد أن رفضتُ أن أرضخ للضغوطات ، ولعبارات اللواء رأفت الغير مهذبة التي كادت أن تقتلني .

- طرق العسكري حسين باب المكتب ودخل مسرعًا : فيه إشارة وصلت لحضرتك يا خالد باشا .
- هاتها يا حسين ، قرأتها فكانت تحتوي على بعض

الكلمات فقط ، ينقل الضابط خالد علي – نقيب بقسم شرطة الدقي إلى نقطة شرطة الخلواتية التابعة لمديرية أمن الجيزة وينفذ القرار من تاريخه .

- بينما أنا أقرأ الإشارة ، وإذ باللواء رأفت يدخل بصحبة زميلي عمرو ، قائلا : نفذ يا عمرو القرار دلوقت ، واستلم من البيه شغله .

- واساني عمرو بصوته الخافت ببعض العبارات : أهدى كده يا خالد وأنا هكلمك بالليل ، متقفلش تلفونك ، وأنا هجمعلك كل حاجاتك من هنا وأبعتهالك على البيت ،ثم تعهد عمرو للواء رأفت بأن كل شيء سيكون على ما يرام وتمام التمام .

أهملني زميلي في العمل بعد أن التهى بالباشا الكبير تاركًا عشرة العمر والأيام تمر خلفه مر السحاب ، فتناسى عمرو كل شيء في مقابل إرضاء اللواء رأفت ، بعدها غادرت القسم إلى البيت ، فرحًا بأني ثأرت لكرامتي التي جرحها اللواء رأفت بعدما مسحت به الأرض ، مر اليوم كما توقعت دون أي اتصال من زميلي عمرو قضيته ألهو مع أطفالي الصغار بعدما

اصطحبتهم إلى احدى المطاعم الشهيرة التي تخصص ركن لألعاب الأطفال .

مر يومي بسلام وجلست على سريري أحملق النظر في السماء متعجلًا حلول الصباح كي أنفذ قرار نقلي لقرية الخلوتية التي لا أعلم عنها شيئًا ، لأبدأ حياة جديدة في مشوار عملي الذي لا ينتهي ، وقد حمدت الله عز وجل أن رحمني من العمل وسط هذا المجتمع الذي لا يُرحم فيه الضعيف .

رحت أعزز نفسي ببعض المميزات التي سأجنيها جراء نقلي خارج العاصمة ، وأولها الأنتخة والراحة حيث أن العمل هناك بلا عمل فمعظم القرى يسودها الهدوء كون أغلب سكانها من الغلابة ، مرت الليلة الطويلة واستيقظت مبكرا رغم أني لم أنم كثيرا لتنفيذ قرار نقلي بعدما توكلت على الله وأدرت محرك سيارتي وانطلقت في اتجاه قرية الخلوتية بعدما تواصلت مع الضابط الذي كان يعمل بها بعد أن طار فرحًا كوني سأحل محله لينتقل هو للعاصمة وأقبع أنا مكانه في ظلمات القرية ، وكانت سعادته سببًا في أن يعطيني التفاصيل الدقيقة عن طبيعة العمل بالقرية وكل شيء عنها .

دخلت القرية بعدما انعطفت يسارًا من الطريق السريع فوجدت يافطة زرقاء مكتوبة عليها بخطٍ تناثرت ألوانه وتشوهت بخطوط الصبية ، فبالكاد تقرأ ما كتب عليه « قرية الخلوتية ترحب بكم « بعدها سرت على طريق ضيق على يمينه تُرعة صغيرة نبت على جانبيها الحشيش والغاب وبعض النخل الصغير والكبير ، وقد زُينت التُرعة برهطٍ من البط والأوز يسير في تناغم وكأنه فرقة عسكرية تسير بنظامٍ وانضباطٍ ، وعلى يساري كانت الأرض الزراعية الممتدة بطول الطريق بلونها الأخضر الساحر المتقطع بلون طائر أبو القردان الأبيض .

وبينما أنا أسير بحثًا عن أحدٍ أسأله عن مكان نقطة الشرطة إذ وجدت فلاحًا في أواخر الخمسينات من العمر يركب حمارًا هزيلًا خطط بطنه ببعض المخطوطات على شكل أهرامات ثلاثة ، وفي يديه حبلٌ باليًا يربط بين بقرتين يتبعهما خروفان وبعض المعاز وجروان أحدهما أسودٌ كبير والآخر أبيضٌ صغير ، توقفت أمامه والقيت عليه السلام بأدب واحترام ، وسألته عن مكان نقطة الشرطة التي كنت أجهلها ، فدلني الفلاح الطيب على مكانها بعدما أشار إليَ بيديه توجيهًا

لي عن طريق السير الذي سأتبعه ، وبينما هو يشرح إذ بجروه الأسود الكبيرة هم نحو السيارة قافزًا على بابها يهاجمني ، فرفعت زجاج السيارة بعد أن ظل الكلب يقفز ويهبط حتى كاد أن يحطمه وهو فاتحًا فمه مخرجًا لسانه الطويل نحوي ، في حين لم يكف الجرو الأبيض الصغير عن النباح .

يبدو أن الكلب ابن الكلب مسعورًا فقد كاد يعض ذراعي الأيسر لولا عناية ربي ، فاتبعت وصفة الفلاح الرشيدة إلى أن وصلت لنقطة الشرطة ، ألقيت نظرة شاملة على النقطة من الخارج والتي بدت وكأنها بُنيت في العصور الوسطى أو منذ فجر التاريخ ؛ لأن بناؤها متهالكًا وبه شروخ وتعاريج طويلة كتعاريج الصحاري العارية المعبرة عن حاله وعمره الطويل بالإضافة للطوب اللبن الذي بُنيت به من طين الأرض فلم يلوث بنار أو غاز ، وغطي الطوب اللبن بآثار من اللون الأصفر الباهت الذي يبدو أنه كان لون البناء القديم ، وما ميز هذا الطوب أنه جعل جدران النقطة رطبةً طريةً ، وهذا ما اكتشفته لاحقًا عندما أقمت فيها .

ترجلت من سيارتي وما أن وطأت قدمي باب النقطة

حتى أوقفني مظهره الغريب العجيب ، فالباب مملوء بوابل من المسامير الضخمة والصغيرة التي نقرته في كل مكان حتى أني لم أرَ مساحة فيه خاوية ليدق فيها مسمار ، ناهيك عن الجروح والخدوش التي لحقت به ، وكان الباب في استقبالي مرحبًا بي ، فلما فتحته عزف سيمفونية موسيقية منظمة عُزفت بلا عازفين احتفاءً باستقبالي وعُزفت الموسيقى على نغمة زيك زيك زيك زيك .

ولجت داخل النقطة التي بدت وكأنها مهجورة من زمن طويل ، فالتراب قبع واستقر فوق جدرانها ، وبعد المدخل بقليل لفت انتباهي صوت مميز طرق مسامعي أتى من خلفي ، فالتفت لأجد أحد أفراد الخدمة يقبع مختبئًا خلف الباب العتيق ، وكان شابًا في مقتبل الثلاثينات أسمر الوجه نحيل طويل ، يرتدي سترة عسكرية قصيرة وأكمامها أقصر من يده التي زينها ببعض الرموز الزرقاء المبهمة ، وكان بيديه عودٍ من قصبِ السكر يقتضبه بفمهِ قضبًا عنيفًا بلا شفقة ولا رحمة معتصرًا العود كعصارة القصب المنتشرة في الميادين والشوارع .

- عندما رآني حدثني غير مباليًا : أي خدمة يا بيه ؟

- فجاوبته : أنا خالد بيه ضابط المباحث الجديد .

- ارتبك العكسري النحيل وترجل من مكانه واقفًا بعدما سقط عود القصب من يده دون أن يدري ، فلربما سقط بسبب الرعشة التي حدثت بيديه نتيجة المفاجأة التي وقعت له ، ثم بدأ في الترحيب بي : يا أهلا وسهلا يا سعادة الباشا ، يا صول جابر ، سعادة الباشا خالد بيه وصل بالسلامة ، يا أهلا يا أهلا .

هرول إليَ الصول جابر مرحبا بي مستخدمًا بعض عبارات النفاق الرنانة وكأن وزير الداخلية هو من وصل للنقطة وليس مجرد ضابط صغير ، وكان الصول جابر رجل كبير قد تجاوز الخمسين من عمره وبدى ذلك من خلال التعريجات الجلدية الكثيرة في وجهه ورقبته الطويلة التي تحمل فوقها رأس صلعاء بلا شعر ، وعينان سوداويتان باهتتان أسفلهما شاربٌ قصير قُطعت أجناحه وبقي منه جزءًا صغيرًا في الوسط يشبه إلى حد كبير شارب النازي الألماني هتلر .

- فلم يختلف جسد الصول جابر عن جسد عوض كثيرًا باستثناء كرش صغير يظهرهُ كالمرأة الحامل في شهورها

الأولى من الحمل : يا أهلا وسهلا يا سعادة البيه ، نورت البلد ، ثم التف نحو فرد الخدمة قائلًا له : روح هات الشاي يا ابن البارد بدل ما أنت واقف زي اللوح كده ، يا أهلا وسهلا يا سعادة الباشا ، داه الواد عوض العسكري بتاع النقطة نورتنا واللهِ ، اتفضل يا باشا اتفضل ، داه مكتب سعادتك .

- مغبر ليه كده ، وكله تراب .
- دقيقتين وتلاقيه بيبرق يا باشا ، أصلي الإشارة لسه واصلة من ساعتين فملحقناش نوضبه ، اتفضل في مكتبي يا خالد بيه ، اصلي محدش بيدخله ياباشا من زمان حتى الظابط اللي اتنقل مكنش بيقعد فيه .
- من امتى الكلام داه ؟
- من حوالي سنة تقريبًا .
- ليكم سنة منضفتوش المكتب ، الله يخرب بيتكم .
- ما هو محدش بيقعد فيه يا خالد باشا ، أصلي الباشا اللي قبلك كان على طول مزوغ ، وكمان كان ساكن قريب من

هنا في نواحي الجيزة ، فكان بيجي ساعتين ويزوغ باقي اليوم ، والبلد هنا هادية يا باشا خالص ، والناس في حالها ، وكله بينام من بعد العشاء ، ومش هتسمع غير الشخير وصوت الضفاضع ، وأنا بعدت لمرات الواد عوض عشان تنضف ليك الاستراحة عشان لو حبيت تريح أو تبات فيها ، وساعتين زمن هتكون جاهزة وزي الفل .

- يارب ، ربنا يستر ، وإيه أخبار الناموس عندكم .
- الناموس ، وهي الدنيا بتحلى من غير الناموس خفيف خفيف ياباشا ، بس الاستراحة مفهاش نموس متقلقش خالص ، كله هيبقى تمام وزي الفل .

طلبت من الصول جابر القيام بجولة تفقدية للقرية إلى أن تنتهي زوجة عوض من تنظيف الاستراحة والمكتب ، انطلقنا بالسيارة الميري التي أكل عليها الدهر وشرب بخلاف سيارة القسم القديم ، فهي سيارة زرقاء باهتة ماركة بيجو موديل 75 تصدر أصواتًا وفرقعات من كل جانب كلما تحركت أو حتى وقفت ، فبالكاد تستطيع أن تفتح أبوابها العتيدة الذي يصدر

أصواتًا وصراخًا عند فتحه وكان شيئا من الحديد تمزق ، كانت القرية بسيطة فملامح الفقر تميزها وتبدو واضحة عليها تمامًا ، فبيوتها بسيطة بنيت من الطوب اللبن تتشابك مع بعضها البعض لتمثل سلسلة طويلة كسلاسل الجبال المتصلة ويقع في وسط هذه البيوت مسجدًا متواضعًا بناهُ أهل القرية بجهودهم الذاتية .

أمام هذه البيوت البسيطة تتناثر الأشجار والنخيل التي تتغذى على مياه جدول ماء امتد من بداية القرية حتى نهايتها ، وأثناء جولتنا صدح المؤذن رافعًا صوته معلنًا عن ميلاد صلاة الظهر فطلبت من الصول جابر الوقوف أمام المسجد لنؤدي صلاة الظهر في جماعة ، فخلعت نعلي ودخلت لمكان الوضوء الذي لم يقل تواضعًا عن بيوت القرية ، توضأت ودخلت محراب المسجد الذي كان صغيرا فقيرًا مقارنة بمساجد المدن الفسيحة ، وللمسجد قبة خضراء لصقت المأذنة فترى الاثنان معًا من داخل ، وفرش المسجد بالحصير وسقفَ بجريد النخل الذي تبدَّل لونه بفعل الزمن رفعت على مجموعة من جزوع النخل ، وله منبرًا من الخشب القديم كسي باللون الأخضر .

أديت تحية المسجد فتصلبت ركبتي وطبع الحصير آثاره على جبهتي وراحتي ، وما أن فرغت من الصلاة حتى أقام المؤذن الصلاة ، فصليتُ خلف شيخ المسجد الذي لم يرتدي العمامة الأزهرية واكتفى بشال أبيض من القماش ، وأنا في غاية الخشوع والأدب ، وعندما فرغت من الصلاة نادى الصول جابر الشيخ بصوتٍ جهور بعد أن أشار إليه أن يصافحني قائلًا له : هذا خالد بيه الضابط الجديد ، وهذا الشيخ أشرف يا خالد باشا فعرفته وعرفني .

خرجت من المسجد وركبت البوكس القديم لنكمل جولتنا بالقرية ... لم نأخذ من الوقت كثيرا فاكتفينا بساعتين شاملة الصلاة ، فعندما انتهينا سيرنا نعود ادراجنا مرة أخرى إلى النقطة (قسم الشرطة الصغير) ، وكانت زوجة العسكري عوض انتهت للتو من نظافة المكتب والاستراحة اللذان لم يتغيرا إلا طفيفا عن ذي قبل ، دخلت المكتب الذي كان مكتبًا قديما عفى عليه الزمن .

وضع عليه مفرشًا باليًا ذو لون أخضر اتسخ بشخابيط الأقلام الزرقاء فيبدو الضابط الذي حليت محله كان مغرمًا

بالرسم عليه فهذا ينم على الملل وقلة العمل في هذا المكان ، وخلفه كرسي عليه وسادة ملونة من القماش يبدو أنها جمعت من بعض الملابس القديمة الممزقة فيبدو أنه كرسي حلاق في أحد النجوع والقرى قد أُخذ منه عنوة ، والكرسي لا يختلف حاله عن حال المكتب فيخشى من يجلس عليه أن ينهار به فيكون مصيره السقوط أرضًا ، وكأنه يتلكأ ليسقطك أرضًا ، وفرشت أرضية المكتب بسجادة بنية لها شراشيب طويلة من الفتل الغليظة ممزقة عند أطرافها سماها أهل القرى الكليم ، وللغرفة نافذة كبيرة عليها أسياخ حديدية سوداء بطول النافذة فكنت أقبع خلف هذا القضبان معظم وقتي في القرية ، ومن المستحيل أن تصدق أن هذا المكتب موجود في القرن الواحد والعشرين .

لم تكن الاستراحة التي جاورت المكتب مختلفة عنه ، فهي مبنية أيضًا بالطوب اللبن وعلى نافذتها ستارة بيضاء تحوّلت بفعل الهواء والغبار إلى لون مصفر ، وفي الاستراحة سرير من النحاس طوقته الناموسية البيضاء في جزئه العلوي ، وكان السرير مرفوعًا عن الأرض بنص متر ، فلا تستطيع الصعود من أسفله لأعلاه ، إلا من خلال كرسي صغير وضع أسفله

ليتمكن من يقرر النوم الصعود من خلاله .

استعرضت المكتب والاستراحة فقرسني الجوع في بطني قرصةً خفيفة لينبهني عن الحاجة للطعام الذي حان موعده ، فقاطعت الصول جابر الذي لم يكف عن الحديث منذ أن وصلت ، أنا هموت من الجوع ، الغدا في الطريق يا باشا ، لم تمضي إلا دقائق وجاء الطعام على صنية دائرية من النحاس الأصفر محمولٌ عليه بطة محشية بالفريك وملوخية خضراء وثلاثة أرغفة من الخبز الشمسي ذو الحجم الكبير .

كان الطعام ساخنًا والخبز كذلك وضع العسكري عوض الطعام بعد أن افترسه بعينيه على الطاولة الخشبية التي تقع في وسط الاستراحة ، فأشرت إليه أن يشاركني الطعام فهمّ بالجلوس لولا نظرات الصول جابر الحادة له التي أعقبها بصرخة مدوية هات ماية باردة يا ابن البارد للباشا ، كنت أميز من الغيط من شدة الجوع ، فلم أتمالك نفسي عندما أمسكت بالبطة التي كانت تستعطفني وترجوني ألا أعصف بها ، إلا أن الجوع قتل الإنسانية من قلبي فأمسكت بها مسكة عنيفة بكلتا يدي إلا أنها عاقبتني لعدم استجابتي لتوسلاتها ،

فلسعت يدي بحراراتها دفاعًا عن نفسها فرميتها مرة على الصينية من شدة سخونتها وشدة حرارتها ، إلا أنني عزمت الفتك بها بعد أن واجهت صحفة الملوخية الخضراء فقضيت عليها ، وعندما فرغت أجهزت على جزء كبير من البطة بلا شفقة ولا رحمة انتقامًا منها للسعها إياي ولملء الجزء المتبقى من المعدة حتى لا أترك مساحة للهواء تجنبًا لانطلاق الغازات المصحوبة بأصوات المفرقعات .

تحرك اليوم ببطء إلى أن جاء العصر فذهبت بصحبة الصول جابر مرة أخرى لأداء الصلاة في المسجد ، وبينما نحن نسير في اتجاه المسجد سمعنا صراخًا وعويلا من بعض النساء فأشار لحزن قد وقع ، حتى أني رأيت الدموع تذرف من عيون الرجال أثناء سيرنا وهم يتوجهون خلف أصوات النساء .

- توقفنا لنسأل الناس ماذا حدث ؟ سأل الصول جابر أحد المارة ... هو فيه إيه يا واد يا عليوة ؟
- أجهش عليوة في البكاء وأخذ يمسح بأكمام جلبابه الطويل دموعه تارة وأنفه تارة أخرى ... مصطفى

الشيمي مات يا عمي جابر .

- يخرب بيتك أبوك عيل نحس زي اللي جابتك .
- حَزِن الصول جابر ودمعت عينه لكنها أبت أن تذرف دمعة واحدة ، فسرعان ما تمالك نفسه سريعًا وصمت لحظات ، فسألته ماذا حدث يا صول جابر ؟
- مصطفى الشيمي مات يا باشا ؟
- مين مصطفى الشمي داه شغال معانا في النقطة .
- لا يا باشا داه داه واد غلبان من بلدنا بس راجل ومفيش مثيل ليه في الشهامة والجدعنة .

طلبت من الصول جابر أن نتجه إلى بيته لتشييع جسمانه ونشارك أهله في محنتهم فأنا الآن كبير القرية ويجب أن يعرف الجميع خالد علي ضابط النقطة الجديد ، فانتهزت الفرصة التي قد لا تتكرر إلا بمشيئة الله ، وتتبعنا أصوات الصراخ والنحيب إلى أن اقتربنا من مصدر الصراخ فترجلت من البوكس ، ومشينا قليلا ليستقبلنا بعض الرجال الذين توشحو بالحزن ليشيروا علينا بالجلوس بعد أن وقفوا جميعا يفسحون لنا مكان على أحد

الدكك المرصوصة أمام أحد البيوت المتواضعة ، وما أن جلسنا حتى هرول أحد الرجال متوسطي العمر فأحضر مسندين من القطن ووضعهما خلفنا حتى أريح عليهما ظهري ، جلسنا أنا والصول جابر بعد أن رحب بنا الجمع بحفاوة ، فأنا الوحيد الذي أبدوا غريبًا وسطهم ، لكن يبدو أن الجميع عرفني ، كيف لا أعرف ، فربما لحضوري بصحبة الصول جابر ، أو لترجُلي من بوكس النقطة ، أو ربما للمسدس الذي كنت أضعه بجانبي .

جلسنا أمام البيت القديم الذي توشح كأهله بالحزن والآسى ، وكان للبيت باب قصير من الخشب محفور بالتشققات رُص أعلاه بعض الطوب بأشكال مختلفة معبرا عن رسومات غير مفهومة ، ففي هذا البيت قد وقعت فاجعة منذ قليل ، وهي موت صاحبه مصطفى ، وبينما نحن جالسون وإذ بالصول يمسك بأذني وأقسم بالله ألا يتركها ، محدثني عن المرحوم مصطفى ذاك الشاب ابن الخامسة والثلاثون عاما ، والذي حزنت القرية على موته لحسن خلقه ومروءته وشهامته التي كانت مع الكبير والصغير ، وأسرد الصول جابر في الكلام ... .

لقد مات مصطفى يا باشا .

مات مصطفى وترك خلفه طفلان صغيران وزوجة في صولجان شبابها ، مات مصطفى وترك أسرته بلا راع يراعها إلا الله ، فسعاد زوجته بنت صغيرة لم تبلغ التاسعة والعشرين بعد ، لها عيون عسلية وبشرة بيضاء تميل إلى الحمار وكأنه تفاح أمريكاني ، وجسدها كُسيا بالحليب الأبيض الصافي ، عندما تتساقط عليه أشعة الشمس يجعل له بريقًا ولمعانًا ، والبنت يا باشا قوامها ممشوق ، لأنك تعلم طبيعة بنات القرى ، فهن يعملن بلا كسل أو تراخي منذ بزوغ الشمس حتى ساعات الليل الأولى ، فهن مختلفات عن بناتكم يا باشا ، كل شيء في القرى تقوم به البنات بأيديهن ، فلا توجد هنا وسائل للترفيهيه أو حتى الراحة ، فالعمل الذي يقمن به كثير ومتنوع ولا حصر له .

حزنت على هذا الشاب ولكن ما زاد من حزني هو سعاد زوجة مصطفى فحالها أصبح كحال الكثير من الأرامل والمطلقات اللاتي فقدن أزواجهن برضاهن أو بأمر القدر ، فأمثال هؤلاء كُتب عليهن الشقاء والعناء والتفرغ لتربية الأبناء ،

فالأبناء وحدهم من يدفعون الأباء والأمهات أن يتحملن ما لا طاقة لهم من أجل راحتهم وسعادتهم ، بالتأكيد ستنسى سعاد مع مرور الأيام نفسها كما تناسى أمثالها ملذات الحياة وتفرغن كما تفرغ أخريات لتربية أطفالهن مستودع فؤادهن ومصدر سعادتهن ، فما سوف يشغل سعاد في المستقبل هو توفير الطعام والشراب لصغيريها أكثر من أي شيء آخر في هذه الحياة .

لم أفلت من زن الصول جابر إلا عندما شردت بذهني بعيدًا عنه لكن عندما عدت وجده يسترسل ويكمل حديثه دون توقف ، إلا أن لم أعد أحتمل فقاطعته بعدما لفتت انتباهي امرأة جلست بلا صراخ ولا ندب فقد جلست شاردة الذهن وهي تمعن التفكير سألتها يعد أن همست في أذنه من تلك الصامتة ، فأجابني بصوت خافت سعاد يا باشا ، لا حول ولا قوة إلا بالله ، تركت الصول جابر ورحت لسعاد أشاركها التفكير في حالها وحال أطفالها ، فالبتأكيد هي تحاول أن تجد لها مخرجًا يؤمن لها قوتها وقوت أطفالها ، فعناء البحث والفقر يقتلان ببطء والأيام تبطش بلا رحمة ، وهنا سألت نفسي . . هل سيتركها الشيطان وحيدة من غير أن يغر بها ويوقعها في بئر

الخطيئة ؟ هل ستستجيب له أم تنتصر عليه ؟

استسلمت مرة أخرى لصوت جابر الذي لم يكف عن الوصف والتحليل والتوقع حتى صرخن النساء بأعلى أصواتهن عند خروج الجسد من البيت محمولًا على خشبة مغطاة بسجادة في اتجاه المسجد لأداء صلاة الميت ، ومن ثم دفنه بمقابر القرية التي تبعد نصف كيلو متر تقريبا في أطراف القرية بعيدة عن البيوت القائمة ، ونحن في الطريق استنطرت على جابر في اغراقه في وصف زوجة الفقيد ، فلا الزمان ولا المكان يسمحان بما قال ، وفي طريق عودتنا من المدافن إلى نقطة الشرطة جلست بالبوكس أفكر في حال تلك المسكينة التي تُركت في عز شبابها ، فماذا سيكون مصيرها ؟ ومن سيطعمها هي وأطفالها ؟ فأشفقت عليها ، وسألت الله أن يفك كربها ، فلن تهدأ تلك المرأة التي بدأت من الآن في التفكير في مصيرها ومصير أطفالها بعد موت راعيها لكني سرعان ما تذكرت أنه رغم موت الراعي ، فإن رب الراعي حي لا يموت .

قررت النوم بعد أن اكتشفت المكان ، وكانت تلك ليلتي الأولى في القرية التي تذكرت بها أيامًا مضت قضيتها مع أهلي في

الصعيد . كان يومًا طويلا ، صعدت إلى السرير صعودًا بواسطة الكرسي الصغير ، ووضعت جسدي المتهالك عليه كي يمتص التعب الذي وقع عليَ ، ورحت استرجي النوم كي يأتي لكنه أبى ، فلقد خاصم النوم مضجعي رغم توسلاتي إليه لكنه أبى أن يلبي ندائي بسبب انشغالي عنه بالتفكير ، أمسكت بإحدى شعيراته ورحت أمشي خلفه دون أن أعي حاجتي للنوم ورحنا نستعرض معًا ما أنا فيه وما أنا عليه ، ممررت بالأحداث التي وقعت لي خلال الأيام الماضية والتي نقلتني هذه النقلة الكبيرة من مكتبي الفاخر في المدينة التي لا تهدأ ولا تنام ، وبين ما أنا فيه الآن من السكوت والسكون والظلام الدامس الذي يخلو من كل شيء سوى نقنقة الضفاضع التي كانت سلوتي ومصدر إزعاجي طوال الليل .

استيقظت صباحًا بعد أن غلبني النعاس عندما سمعت أذان الفجر فسيطر عليَ الشيطان كعادته خوفًا أن أقوم لها فغلبني كعادته واستسلمت للنوم الذي قرر أن ينتقم مني لتركي إياه في الليل بعد أن فضلت التفكير عليه وسيطر عليَ تمامًا حتى أن لم أفق من النوم إلا على صوت أذان الظهر ، قمت مذعورًا

عندما رأيت الشمس تملأ الاستراحة بعد أن دخلت دون أن أأذن لها ، فظنيت أن شيء ما قد حدث لكن ما أثلج صدري أن الهدوء كان يملأ المكان ويسيطر عليه ، قمت وغسلت جسدي بالماء والصابون ، ثم أديت صلاة الصبح التي تركتها كسلًا ، ثم تبعتها بصلاة الظهر على وقتها .

عندما فرغت وجدت العسكري عوض يحضر صنية حملت عليه صحفة من الفخار يتصارع فيه البيض مع السمن البلدي الساخن فيهرع البيض لأعلى فرارًا من بطش السمن الذي كاد يعصف به ، فيصرخ ويقفز لأعلى لكن سرعان ما وقع مرة أخرى في أحضان السمن الساخن والسمن لا يكف عن البطش والضرب والبيض لا يكف عن الصراغ والقفز وظل هكذا يتصارعان لدقائق ، ولم يرحم السمن البيض إلا عندما هدأت سخونته ، ووضع بجوار البيض صحفة من الصاج بها جبن قريش وفطيرتان كبيرتان من المشلتت ذرف السمن منهما من كل جانب وكوب كبير من الحليب الكامل الدسم ، أجهزت على الفطار بلا رحمة وقضيت عليه تمامًا دون أن أشعر ، غسلت يدي وولجت من باب الاستراحة إلى المكتب الذي جلست عليه بكل

أدب خشية أن يغدر بي ويسقطني أرضاً وكان الصول جابر يجلس على كرسي من الخيزران وضع أمام المكتب ، فرحت أسأله عن سعاد التي لم أكف يومًا عن سؤالي عنها ومساعدتها بشكل غير مباشر عن طريق الصول جابر الذي كان حلقة الوصل بيني وبينها .

كنت أتابع أخبارها من بعيد ، وقد علمت من مصادري أن الأقدار مازالت تخاصم بيت سعاد ، فغاب عنها الأهل والرفقاء وتقطعت أرحامها وأوصالها ، إلا من أقل القليل منهم فقط من له حاجة أراد أن يقضيها ، كالتسلية والسلوان أو رميًا لطعم لصيد تلك الفريسة التي كانت في ريعان شبابها ، هذا هو حال الدنيا ترى فيها الناس قد ذهبوا إلى من عنده الذهب ومن ليس عنده ذهب فعنه الناس قد ذهبوا ، إلا أن الجميع يبدو أنهم انقطعوا خوفا من تحمل المسئولية أو اقتسام العناء معها ، فالكل مهموم ويحمل فوق طاقته وبه ما يكفيه من الهم والغم ، لذلك تجد الناس تفر هربًا من تحمل المسئولية كما يفرون من الموت الذي هو ملقيهم حتمًا ، إلا أن من هؤلاء من استطاع الهرب والفلتان مصطحبًا معه الذل والخذلان ،

والبعض الآخر لم يستطع الفر ولا الكر .

انقطع الجميع وبقى الشيخ أشرف – شيخ المسجد ، فالشيخ أشرف كما يناديه أهل قريته شيخ الغلابة والمساكين ، فهو الخطيب والرفيق والحبيب لكل أبناء القرية كبيرها وصغيرها ، وكان الشيخ أشرف طويل القامة أسمر الوجه ذو لحية مهذبة خفيفة ترى النور يشع من وجههِ لسماحته وابتسامته التي لا تفارقه ليل نهار ، يحبه الكثير لتواضعه ولين حديثه وسعة صدره وسؤاله عن المرضى والأرامل وكبار السن في القرية ، فهو ودودٌ صبور .

تفاعل أشرف مع موت مصطفى عبد الواحد كما تفاعل الجميع ، إلا أن نظرته اختلفت عن الآخرين لعلاقته الوطيدة بمصطفى زوج سعاد ، فرأى أن الواجب حتّم عليه الوقوف بجانبها والسؤال عنها ومساعدتها ولو بأقل القليل ، خاصة أنه بن الحيط في الحيط فالبيتان متلاصقان كما تتلاصق النخلة بوليدها ، فكان أشرف أكثر الناس إطراقا لباب سعاد سائلًا عنها وعن أطفالها مقدمًا لها يدا العون ايفاءًا ببعض متطلباتها وقضاء بعض حوائجها التي لا تقدر عليها ، هذا ما كانت

مصادري تخبرني به .

مرت الأيام والشهور وأنا مازلت في مكاني لم أبرحه بعد أن نُفيت من المدينة للقرية ومع مرور الأيام كدت أنسى المدينة ، فالعمل في القرية رتيب مُمل ولا جديد فيه سوى أفراح الزواج وتوديع الموتى إلى قبورهم ، أما شكل الحياة فكان يسير على وتيرة واحدة كما هي بلا تغيير ولا تجديد ، إلا أن أجمل ما كان في تلك القرية هو الفطار الذي صُنع من الطبيعة عكس فطار المدينة المليء بالزيوت المهدرجة والألوان الصحية الغير طبيعية .

بعد ثلاثة أشهر بالتمام والكمال وفي يوم الثلاثاء ، وبينما أنا أتناول الفطور كعادتي بصحبة الصول جابر الذي أصبح قدري ورفيقي في تلك القرية ، دخل العسكري عوض المكتب مفزوعًا صارخًا بأعلى صوته ... يا خالد بيه ، يا خالد بيه ، مصيبة يا خالد بيه .

- فيه إيه يا عوض ؟ مصيبة إيه كفانا الله الشر .
- مصيبة يا خالد بيه مصيبة .
- فيه إيه يا جدع أنت ؟ اتكلم وقفت أعصابي .

- عيال سعاد بنت سعد الدين مرات مصطفى عبدالواحد حرامي دخل البيت قتلهم وهرب .
- فنظرت إلى جابر وقلت له : قتل ؟ ! ، إنت يا جابر بتقول الناس لا بتهش ولا بتنش في البلد دي ، ايه القتل داه اللي بيقول عليه عوض .
- الصول جابر موجهًا حديثه للعسكري عوض : إنت يا واد يا عوض اتأكدت من اللي حصل ؟
- عوض : أيوه يا عم جابر ، داه البلد كلها ملمومة ومتجمعة هناك عند بيت البت سعاد ومحدش مصدق اللي حصل .
- أوعى يا عوض يكون حد لمس حاجة ؟ !
- لا يا باشا ودي تفوتني ، أنا خليت الواد حسن يقف حراسة على البيت وميدخلش أي حد لغاية لما أبلغ جنابك .
- ياله بينا يا جابر ، جهز الرجالة وبينا على بيت سعاد ، لما نشوف المصيبة اللي حصلت هناك .

انطلقنا بالبوكس وركبت بجوار السائق سعد الذي كلما نظرت لوجهه تبسم بمناسبة وبغير مناسبة ، وركب الصول جابر ومعه عوض واثنان آخران من المجندين خلفي ، وأثناء السير بالطريق كان البوكس يتمايل يمينًا ويسارًا من سوء حالة الطريق الغير مستوية ، وظل سعد يطلق سرينة البوكس حتى يفسح المارة الطريق أمامنا ، ولم يتوقف حتى وصلنا بيت سعاد ، ترجلت أنا في البداية مهرولًا نحو البيت وكان الصول جابر يتبعني ، بينما تفرغ عوض وسعد بالصراخ في وجه الجمع من الناس الذين وقفوا أمام البيت بعدما أن أشاروا إليهم بالتحرك من المكان كي لا يذهبون في داهية ، فركض الجميع هربًا من بطش عوض الذي كان يمسك بيده عصاة طويلة من الخيزران ، كان يرفعها ويخفضها في الهواء مهددًا إياهم مؤثرين السلامة عن الضرب وقد فروا هاربين كاللصوص .

دخلت بيت سعاد الذي رأيته من قبل من الخارج ، وكان البيت بسيطًا مبنيًا من الطين والطوب اللبن ، ولم يختلف عن بيوت القرية في شيء ، فبناؤه كان من الطين وبعض جزوع النخل والشجر ، وله باب قصير ، دار عليه الزمن فغير من

بعض ملامحه وكان للبيت نافذة صغيرة بها بعض أسياخ الحديد توحي للصوص بأن البيت محصنًا من أي محاولة للتسلل أو الدخول رغم رخاوته ، فإذا ركلته برجليك سيسقط قطعة قطعة فهو لا يحتاج لأي مجهود من اللصوص في حالة اقتحامه .

في البيت ديوان فسيح وغرفتان صغيرتان بهما فتحتان كالنافذتان وضع في مدخل كل غرفة قماشة بالية تسترها من عيون الجالسين في ديوان المستقبلين ودورة مياه صغيرة ، دخلت إحدى الغرفتين فوجدت جثتان لطفلين صغيرين ملقيان على الأرض ، كان الولد عليه آثار دماء والبنت كانت غارقة في الدماء ، كان المنظر حقًا بشعًا وخاصةً أنه لطفلين صغيرين .

فَعيني لم تألف ما رأيت لأن عملي كان مع البغايا والعرايا ، نظرت للجثتين متفحصًا ما وقعا بهما وكان الطفل يرتدي جلبابًا من الكستور مخططًا باللونين الأخضر والأبيض والبنت ترتدي فستان من الكستور أيضاً لكنه منقوش باللون الأصفر ، كان الطفلان يرقدان على الأرض بجوار أشياء كثيرة مبعثرة كوسادتين أحدهما كسيت بقماشة حمراء والأخرى خضراء وبعض ملابس الأطفال ومسبحة خشبية قديمة وكوبان وطبق وعروسة من

القماش لوثت بالدماء ، ويظهر هذا الهرج والمرج في موقع الحادث أن أحد الطفلين قد قاومَ القاتل ، بعد أن تفحصت المكان طلبت من عوض أن يقوم بإرسال إِشارة عاجلة للمركز التابع له القرية حتى تحضر النيابة والطبيب الشرعي لمعاينة الجثتين .

مرت بضع ساعات حتى حضرت النيابة برفقة الطبيب الشرعي وكنت في استقبالها فعاين الطبيب الشرعي الجثتين ، ثم كتب تقريره وأوصى بنقل الجثتين إلى مشرحة المستشفى البعيدة عن القرية لمعرفة طريقة القتل وآثارها على جثة الطفلين ، قام المسعفون بنقل الجثتين إلى عربة الإسعاف التي كانت تقف خارج البيت ، وتحركا بسرعة قاصدين المستشفى المركزي ، وبينما ينقل المسعفون الجثث كانت سعاد جالسة على الأرض تصرخ وتحيب وتردد بعض الكلمات المحزنة حزنًا على فراق أطفالها ، لعنت وقتها قسوة الأيام التي لا ترحم الضعفاء ، فلم يمر شهور على موت زوجها حتى لحق به الطفلين .

رافقت الجثتين مع القوة إلى المستشفى المركزي وتبعتنا في الطريق سيارتين نقل صغيريتين حملت بعض الرجال وبعض

النسوة وسعاد حتى وصلنا المستشفى ، فنقل المسعفون مسرعين الجثتين إلى المشرحة ، فلم يستغرقا فيها من الوقت الكثير ، بعدها خرج الطبيب الذي شرّح الجثتين وأشار بدخول أحد المغسلين الذي حمل كفنين أبيضين ودخل بصحبة الطبيب الذي خرج بعد نصف ساعة ليشير لنا بحمل الجثين بعد أن سلمني الطبيب التصريح بالدفن .

وضع الرجال الجثتين على خشبتين مغطيتين بفرش وحملهما إلى إحدى سيارات النقل بعدما التفوا حولهما ، وانطلق أنا في الإمام يتبعني السياراتين والجثتين ، لنعود أدراجنا مرة أخرى إلى القرية ، وما أن دنونا من القرية حتى رأيت من بعد الجمع من أهلها رجالًا ونساءً جالسين في مدخلها ينتظرون قدومنا وقد خيم الحزن عليهم ، رافقنا أهل القرية منذ أن دخلنا حتى المقابر لمسافة طويلة سيرًا على الأقدام بينما كنت أنا ورجالي نركب البوكس الذي سار ببطئ شديد توقيرا للحدث ، انتهت مراسم الدفن لكن التحقيق لم ينتهي ، ففي اليوم التالي بدأت في التحري عن الواقعة والبحث من خلال مصادري .

جاءتني التحريات ببعض أسماء المترددين على بيت سعاد ،

فقمت باستدعائهم والتحقيق معهم ، ثم استدعيت سعاد بعد عدة أيام كي آخذ أقوالها

- اتفضلي يا سعاد ، البقاء لله ، وأنا آسف إني استدعيتك في الوقت داه ، بس داه محضر ولازم يتقفل ، عشان نحاول نوصل للي قتل .
- افتح المحضر يا حضرة الصول .
- إنه في يوم الخميس الموافق 28 أكتوبر 2010 ، وفي تمام الساعة التاسعة صباحًا جاءنا بلاغ بوقوع جريمة قتل قد وقعت في منزل السيدة سعاد سعد الدين بقرية الخلوتية مركز البلورة محافظة الجيزة والكائن بجوار مسجد الرحمة .
- إيه اللي حصل يوم الحادث يا سعاد ؟
- يا لهوي يا مراري ، يا عيالي ، عيالي ماتوا يا سعادة البيه ، ماتوا .
- استهدي بالله يا سعاد ، عشان نعرف ايه اللي حصل .

- عيالي ياباشا عيالي ، ماتوا ، ماتوا ، يا مرارررري .
- يا ستي اهدي ، خلينا نعرف ايه اللي حصل ، مش هينفع كده ، يا عم جابر هاتماية لسعاد عشان تهدى .
- الصول جابر : يا واد يا عوض عبي سطل المايه من الزيرة بسرعة وهاته للبنية المسكينة عشان تشرب .
- العسكري عوض : حاضر يا عمي جابر .
- أحضر عوض الماء ، وناوله الصول جابر الذي أعطاه لسعاد : خدي يا سعاد اشربي يا بنتي ، واستهدي بالله .

كان التحقيق في تلك القضية صعبًا بل من أصعب القضايا التي حققت فيها طوال حياتي المهنية بسبب مشاعري الجياشة تجاه سعاد التي تأثرت بها وبحالها وخاصة بعد مقتل طفليها الذي جاء بعد موت زوجها ، حتى أني عاتبت الدهر على فعلته ، لكنه وكعادته رفض أن يرد على نجواي واكتفى بالصمت دون أن يعقب .

- يا سعاد مين كان بيدخل عليكي في بيتك وبيطلع ؟
- جاوبت سعاد بارتباك ، محدش يا بيه حريم الجيران .
- حريم الجيران وبس ؟
- أيوه يا بيه ، وكان مرات كده الشيخ أشرف شيخ الجامع بيشقر علينا من وقت للتاني .
- تتهمي حد أنه قتل عيالك يا سعاد ؟
- لا ياباشا الكدب حرام ، هكدب وأقول زور على الناس ؟
- طايب ليكي عداوت مع أي حد ؟
- لا ياباشا أنا واحدة منكسرة وفي حالي .
- بتشكي في حد معين إنه يكون قتل العيال ؟
- لا يا باشا انا مبشكش في حد كل الناس هنا غلابة وفي حالها ، داه اكيد اللي قتل من بره الناحية مش من عندنا .

- قفل المحضر يا صول جابر وبصم سعاد وخليها تمشي .

لم أهتم بما قالت سعاد فكنت أسعى لأغلق المحضر حتى لا أسبب العناء لها فيكفيها ما هي فيه ، فكنت مشفقًا عليها مما حدث لها ملتمسًا لها العذر والمعذرة ، وبعدما وجهت لها تلك الأسئلة الروتينية ، أغلقت المحضر ، ثم طلبت من العسكري عوض أن يوصل سعاد بالبوكس إلى بيتها ، فحالتها لا تسمح لها بالعودة إلى بيتها سيرًا على قدميها .

مرت الأيام ولم أجد أي معلومات جديدة تحرك تلك القضية من ركوضها ، لكن عيوني في القرية لم تغفل عن بيت سعاد ولم تنام ليلا كان أو نهار ، وبدأت الناس كعادتها تنسى ما وقع ، حتى سعاد عاشت وكأن شيئًا لم يحدث ، وذات يوم وبينما أنا جالس في مكتبي أتابع تلفاز النقطة الأبيض والأسود بصحبة الصول جابر الذي يبدو أنه لا بيت له ولا أهل ، إذ كان يلازمني فترات طويلة حتى أني ظننت في باديء الأمر أنه أعزب غير متزوج ، ورحت أسأله عن حال المسكينة التي لا عائل لها ، فعلمت أن المرأة تعيش وحيدة لأن أهلها اختفوا من الوجود .

فهي يتيمة الأب والأم وليس لها إلا أخٌ واحد غرق وهو صغير في جدول الماء فغرقت معه أحلام الأسرة التي عاشت أمدًا طويلا تنتظره لعله يكون السند والمعين ، لكن هذا الطفل حل ضيفا خفيفا ثم اختفى كما اختفى والديه ، ولقد كان لقصة موت والد سعاد وأمها صدى كبير بين أهل القرية فكانت تعيش وحيدة معهم ، فبينما هم نائمون تساقط عليهم سقف البيت البالي بعد أن دحرته الأمطار الشديدة ، وكتب الله حينها النجاة لسعاد بعد أن أصيبت بعدة إصابات لكنها لم تمت وكتب الله النجاة لأخيها الذي كان نائما عند خالته إلى أن مات غرقا فيما بعد وهو يلهو في جدول الماء ، وبعد موت أخيها طرق الزواج باب بيتها ففتحت له الباب وحصل المراد وتزوجت من مصطفى الذي مات هو أيضا كما مات أهلها من قبل ، وكأنه مكتوب على تلك المسكينة أن تعيش وحيدة في هذه الدنيا ، هذا ما علمته من الصول جابر الذي لم ينقطع عن الكلام عنها .

- وبينما نحن كذلك حتى دخل علينا أحد مصادري قائلا : يا خالد باشا الأمور في البلد تمام وكله بينام من بعد العشا والأمن مستتب ومفيش أي مشاكل والحمد

لله .

- وأخبار سعاد وعيالها ايه ؟
- مفيش يا باشا ، زي ما هي لا حد بيدخل ولا بيخرج ، مفيش غير الشيخ أشرف بارك الله فيه هو الوحيد اللي بيسأل عنها وبيقضيلها كل طلباتها .
- رجل محترم والله ، لو كل الناس بتعمل زيه مكنش بقي فينا حد محتاج أي حاجة .
- أيوه والله ياباشا .

تمر الأيام في القرية ببطء عكس الأيام في المدن التي تطير كصفحات الكتاب التي يقلبها القاريء بسرعة مدفوعًا برغبته في إنهاء ما يقرأ ، عكس الحياة في القرى التي تقتل النفس رويدا رويدا بسبب الملل والروتين الذي تسير عليه الحياة ناهيك عن ضيق الحال الكفيل بأن يمزق أعتى الرجال على وجه الأرض إربا إربا غير مباليا بهم أو بغيرهم ، فلقد قالها الإمام علي رضي الله عنه لو كان الفقر رجلًا لقتلته ، الفقر يدخل كل بيت بلا استئذان أو كمال يقال في الأمثال الشعبية «يدخل ولا

احم ولا دستور « ، ولا يرأف ولا يرحم من يدخل ببيته فهو يتفنن كالعدو في إذلال وإضعاف من يحل به ، هكذا يفعل الفقر ببيوت الثكالى والأرامل والضعفاء من البشر فيمزقهم شر ممزق ، إلا أن الله لا يترك كائن على وجه الأرض بدون رزق ، فقال تعالى « وفي السماء رزقكم وما توعدون « ، فيبعث الله من يرعى هؤلاء الضعفاء فيحنو إليهم من حين لأخر ، فيرطب الله بالرعاة قلوب الفقراء .

غاب أشخاصٌ كثيرون عن بيت سعاد ، فمنهم من تخلى عن دوره الذي من من المفترض أن يقوم به طوعا أو كرهًا ، فغاب إخوان مصطفى زوج سعاد عن بيت أخيهم الذي غيبه القدر عنوة ، فتركوا زوجته سعاد وأبناؤه يعانون الوحدة ورقة الحال ، ففتحي أخو مصطفى الكبير صاحب المال الوفير والعمر المديد يعاني مرض الشح والبخل الذي لازمه من صغره كما يقول أهل القرية ، فيخاف فتحي على المال أكثر من خوفه على أبناء إخوته ؛ لأنه يحب المال حبًا جما فصار بينه وبين المال عشق كعشق قيس بن الملوح وليلي .

فالمال بالنسبة له هو الصديق الصدوق والرفيق والحبيب

كونه أشد الناس حرصا عليه من أي شخص آخر على وجه الأرض ، فاشترى فتحي الدنيا بالآخرة من أجله ، لذلك فقد تخلى طوعا وبرغبته عن مساعدة أبناء أخيه اليتامي ، أما أخو مصطفى الثاني والذي يُدعى حسن فهو أرق حالًا وأُقل حيلة من سعاد نفسها ، فيعمل حسن أُجري في فلاحة الأرض فإن خرج للعمل أكل بيته وشرب وإن تقاعس أو أصابته وعكة أو ألمٍ يصوم بيته عن الطعام والشراب حتى يخرج للعمل مرة أخرى في اليوم التالي أو الثالث هو ورزقه ، كُثر هؤلاء أمثال حسن الذين يعيشون في بلادنا رقاق الحال ، فلا أحد يشعر بهم ولا يحس ، فهم يعيشون في هدوء ويرحلون عنا أيضا في هدوء ، فلا تسمع لهم ضجيجًا ولا صراخًا ولا صوتا ولا نحيبا ولا آهات ولا أنات ، رغم ما يقع عليهم من فقرٍ قتلهم مثلما قتل غيرهم من الضعفاء الذين لا حول لهم ولا قوة في هذا الزمن ، فحسن ترك أبناء أخيه كرها لا طواعية فلا يُلام كما يُلام أخيه فتحي ، تلك معلوماتي عن سعاد كما عرفتها ممن يعملون معي بنقطة الشرطة .

جاء يوم الجمعة فاستيقظت مبكرا وبدأت يومي بالاستغفار

والتسبيح وقراءة سورة الكهف ، وقد أكثرت بالصلاة والسلام على رسولنا الكريم ، ثم تناولت إفطاري وحبست بكوب من الشاي الخفيف بعدها اغتسلت وتوضأت وصليت ركعتين ، وذهبت إلى المسجد برفقة العسكري عوض الذي قاد البوكس من النقطة إلى مسجد القرية لقيام سعيد بأجازة .

دخلت المسجد فأفسح لي الحاضرون المكان وقد أشاروا إليَ رغبة في الجلوس بجوارهم في الصف الأول ، صليت ركعتين خفيفتين تحية للمسجد ، ثم جلست انتظارًا لصعود الخطيب المنبر الذي صعده بعد أن انتهيت من الصلاة وكأنه انتظرني كي أفرغ منها ، وجلست كباقي المصلين أستمع لخطبة الجمعة من الشيخ السمح الشيخ أشرف ... حدثنا خلالها عن فضل الوالدين ، فتذكرت أمي وأبي وما كان يقومان به من أجلي في طفولتي وأثناء شبابي ، وتذكرت ما تحملاهُ من كد ونصب بسبب شقاوتي التي فاقت كل الحدود فكنت كثير اللعب والتخريب ، ذهبت للحظات ثم عدت ثانيةً لإعاود الاستماع للخطيب الذي أسرد كثيرًا في فضل الوالدين ، ومنزلتهما عند الله ورسوله ، ظللت أستمع وعيني لم ترتفع عن الأرض طوال

الخطبة تأثرًا بما كان يقول الشيخ .

ما زاد من إنصاتي له قوة صوت الشيخ فكان جهورًا لبقًا يخفض ويرفع في صوته فيجذب إليه ، ناهيك عن إشاراته المتكررة بكلتا يديه يمينًا ويسارًا إلى أن انتهى من خطبته بالدعاء ، ثم أقام الصلاة وصلينا خلفه فبدأ بسورة الفاتحة ثم أعقب بقوله تعالى : ﴿ وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ [15سورة الأحقاف] .

وفي الركعة الثانية ختمها بقوله تعالى من سورة الحج ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ * يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾

حتى سلم وأنهى الصلاة ، وفي هذه المرة جاءت جلستي أمام الشيخ أشرف الذي كان مشغولا بختم الصلاة والتسبيح بمسبحته الخشبية القديمة ذات اللون البني ، سلمت عليه وانصرفت بعدما تبادلنا التحية ، ثم شكرته وأثنيت عليه لبراعته في الخطابة ولموضوع الخطبة الذي يحس الناس على رعاية الوالدين وتحذيرهم من عقوقهما ، وطلبت منه أن يحضر إلى مكتبي في أي وقت وقتما احتاج أي مساعدة ، فأنا مهتم بمساعدة أهل القرية في أي شيء أستطيع القيام به .

بعد أن فرغت من الصلاة أشرت على عوض بالرحيل فتبعني في هدوء حتى خرجنا من المسجد ، وتوجهنا إلى النقطة وجلست مع عوض لكي أمرر الوقت الطويل ، فهذه المرة يبدو أن جابر كان مشغولا مع أهل بيته على غير عادته ، فجلست أطالع إحدى المباريات الكروية بين فريقي المفضل النادي الأهلي وبين غريمه الشهير نادي الزمالك فكنت أتابع المبارة بحماسة شديدة حتى التهم الأهلي غريمه بكل سهولة مسجلًا ستة أهداف في شباكه بلا رأفة .

مر الوقت سريعًا فضاعت مني صلاة العصر والمغرب

بسبب المباراة ومتعتها التي أخذنتي بعيدا عنها ، ففرغت الشحنة الإيمانية في هذا اليوم لعدم شحنها بالصلاة والتسبيح باستثناء فترة الصباح وما تلاها من صلاة الجمعة ، إلا أنني جمعت الفروض معًا العصر والمغرب وأدركت العشاء في موعدها ، فأديتها ، وقمت أمسك بكتاب الله رغبةً في إعادة الشحن مرة أخرى فقرأت سورة البقرة كاملة دون أن أعي بعد أن أخذنا القرآن ببلاغته وروعة أسلوبه حتى فوجئت أن السورة الطويلة طويت صفاحتها وانتهت دون كلل أو ملل .

بعدها تناولت كوبًا من الشاي ساخنًا كما أحبه بعد أن وضعت فيه القليل من السكر وأمسكت بمسبحتي البنية التي أقتنيتها منذ زمن بعد أن اشتريتها من المدينة المنورة أثناء رحلتي لأداء العمرة بالأراضي المقدسة ، وبينما أنا أسبح حتى تذكرت المسبحة الملقاة على الأرض وقت وقوع الجريمة وقلت في نفسي يا سبحان الله المسبحة موجودة في كل مكان حتى في جرائم القتل .

سبحت ونمت على طهارة ووضوء ، وقُبيل أذان الفجر بنصف ساعة رأيت في منامي الشيخ أشرف يصرخ في وجهي

وكأنه شيطان رجيم ، ثم قذفني بمسبحة خشبية في وجهي وكانت ككرة النار الملتهبة ، فمن شدة تأثيرها قفزت من على السرير وأنا أرتعد خوفًا وأنا أنطق بالشهادتين وبينما أنا على هذه الحالة إذ بالمؤذن يصدح بالأذان ... . الله أكبر الله أكبر ، فاطمأنيت وقمت من على فراشي وتوضأت وصليت الفجر في موعده فتغلب عليَّ الشيطان هذه المرة وكسب جولة من عدة جولات قد خسرتها ، أدركت أن هذه الرؤيا رسالة لي لكني لم أعي ما جاءت به فرحت أطرح بعض التخمينات فقلت لعلها رسالة ربانية أرادت أن توجهني نحو القاتل ، أو تحذير لي من شيء ما ، لكني رجعت أن توجيه نحو القاتل لرؤية الرجل الصالح الشيخ أشرف في الرؤية ، وما أن بزغت الشمس عن ميلاد اليوم الجديد حتى أرسلت في طلب الشيخ أشرف لكي أقص عليه ما رأيت في منامي ، لم يتأخر الرجل وجاءني ملبيًا الدعوة دون تأخير .

- السلام عليكم يا خالد باشا .
- وعليكم السلام يا مولانا ، يا أهلا وسهلا ، يا مرحب يا مرحب يا شيخ ، سامحني أنا قلقتك على الصبح .

- مرحب بيك يا خالد بيه ، انت تأمرنا يا باشا في أي وقت .
- الأمر لله ، بارك الله فيك يا شيخ ، بس أنا شفت رؤيا غريبة امبارح بالليل وفظعتني وحبيت آخذ رأيك فيها ، وإذا كان ممكن تفسرها لي .
- يا سلام ، تحت أمرك يا باشا ، إيه اللي شفته .
- قصيت عليه ما رأيت في منامي دون نقص أو زيادة ، وبعد صمت طويل توقف خلاله الشيخ أشرف عن الكلام ، ظنيت أنه مشغول بتفسيرها ، قال لي : إن عدوًا ما يتربص بي ، ويكيد لي المكائد .
- بس أنا مليش أعداء يا شيخ .
- هو فيه حد ملهوش أعداء يا باشا ، أكيد عدو ، والدليل إنه فزعك في عز منامك
- طايب وصورتك والمسبحة إيه علاقتك إنت بأعدائي .
- صورتي والمسبحة معناها إن العبد الفقير اللي قدامك

هيكون سبب نجاتك من العدو المتربص بيك .

رحت أبحث في ذاكرتي عن هذا العدو ، ومن يكون حتى أعد له العدة قدر ما استطعت ، وعلى الفور تذكرت اللواء رأفت وأولاد الذوات الذين مسحت بهم الأرض مسحًا منذ شهور مضت ، فاقتنعت تمامًا بتفسير الشيخ أشرف .

لم أرتاح لهذه الرؤيا وخاصة بعد أن ظلت تطاردني في صحياني ونومي ، فلم تغيب عن بالي قط فشغلت جزءًا كبيرًا من تفكيري بعد أن سهرت الليالي وهجرت النوم ، مرت الأيام وبدأت أتأقلم على جو القرية الهاديء ، وأكثر ما كان يستهويني القرية ، فالهواء عليل والقمر ساطع ، فكنت أترجل ما بين النخيل الذي يهتز بالنسيم فيملىء صدري بالهواء النقي فترتاح سريرتي وتنتظم أنفاسي ودقات قلبي موفرًا قدر كبير من الراحة لعقلي بفعل الأكسجين النقي الذي تدفق إليه ، فوفر له الراحة والآمان عكس الفترة المنصرمة التي قضيتها في المدينة والتي كانت مليئة بالمشاكل .

في تلك الليلة التي كان البدر فيها مكتملًا خرجت بعد أن

أنار لنا الطريق والمكان وكان بصحبتي العسكري عوض الذي كان يتبعني بخطوة أو خطوتين بعد أن تركني أمشي أمامه وظل يمشي خلفي برفقة ظلي ، لم يكف عوض عن الكلام لكني لم أبالي بما كان يقول ليس تكبرًا ولا استخفافًا بالرجل ، ولكن لأني كنت شارد الذهن أفكر في بيتي وأولادي وتلك من عادتي منذ كنت شابًا يأخذني التفكير إلى مكان آخر غير الذي أنا فيه فأخذنا المسير حتى اقتربنا من بيوت القرية المتشابكة كالأغصان ، وكنا في جوف الليل حيث كانت تشير عقارب ساعتي إلى الواحدة والنصف ، وبينما نحن نسير صرخ عوض في أذني حتى كاد أن يخرقها بصوته المزعج فأفزعني .

- حرامي يا باشا ، حرامي يا خالد بيه .
- فيه إيه يا زفت ، سيبت ركبي .
- فيه حد نط من بيت الشيخ أشرف ناحية بيت البت سعاد يا باشا أهوه .
- شكله ايه داه الله يخرب بيتك .
- أنا شفت ظله يا باشا ، وهو بينط .

- ظله وعملت كده ، طايب بالرحة يا حمار مش عايزين حد يحس بينا ، كويس إن صوتك زي صوت الضفاضع كان زمانه سمعك وهرب .
- بعدها همس عوض في أذني ... ممكن يا باشا يكون داه اللي قتل العيال وجاي يخلص على سعاد .
- يخرب بيتك ، بس والله ممكن ، يالله ورايا بالراحة عشان ميحسش بينا .

ركضنا سويًا في خفة ورشاقة حتى لا يشعر بنا اللص ويفر هاربًا ، وقد استغرقنا دقائق حتى وصلنا بيت سعاد ، فأخرجت مسدسي ووضعت يدي على الزناد ، وأذني على باب البيت الهزيل ، وإذا بي لا أسمع صوتًا مجرد همس لم أستطع تفسيره ، فظننت في باديء الأمر أن بالداخل لصان وليس لص واحد ، فقد يكون عوض رأي واحدًا منهم فقط وقد سبقه الآخر إلى بيت سعاد ، فقلت في نفسي ربما همّ الأول لقتلها وتبعه الثاني للبحث عن شيء يسرقه ، فالمسكينة ترقد وحيدة بلا أنيس ولا ونيس ، إلى أن ما تأكد لدي أن هؤلاء من قتلوا الأطفال وعادوا ليعاودوا الكرة بعد أن هدأت الدنيا بعد مقتل الطفلين .

رججت الباب كي أفتحه فأبى أن ينفتح ، فرجعت خطوتين للخلف ثم أسرعت إليه وركلته برجلي بقوة فانفلق نصفين ، وولجت مسرعًا داخل البيت وأنا أسير خلف مسدسي وخلفي العسكري عوض ، فسمعت صوت سعاد صارخةً ... يا لهوي حرامي حرامي ، فقلت : أهدىء يا سعاد ولا تخشي أحدًا فأنا خالد ضابط المباحث ومعي عوض فظننت أن سعاد ستطمئن إلا أني فوجئت أنها تلطم وجنتيها بعد أن سمعت صوت اللطم بأذني ولم أراه بعيني ، ثم ناديت على عوض : افتح النور يا عوض بسرعة ، متخفيش يا سعاد أنا جنبك ، سلم نفسك يا ابن الكلب وإلا هضرب في المليان .

فتح عوض النور ، وكانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها يومًا ولم تخطر ببالي ولا ببال أحد قط ، حتى أنها شلّت أركاني ووقفت كالعاجز من فاجعة ما رأيت ، سعاد عارية تمامًا ، وضعت يديها على نهديها وضمت رجليها لتخبأ عورتها وإن كل جسمها عورة وليس ما خبأت ، وفي المقابل رجلٌ عاري تمامًا كان جالسًا بجوارها على السرير يضع يده على رأسه لم أرَ منه إلا ظهره ، وضعت المسدس في رأسه وقلت له : قف يا ابن

الكلب ، وهنا كانت المفاجأة التي لم أكن أتوقعها أبدًا ... يا ترى من يكون هذا الرجل . إنه الشيخ أشرف شيخ المسجد ، صدمتان في وقت واحد كفيلان أن يصيبان المخ بجلطة ويوقفا سريان الدم بشكله الطبيعي ، فالقلب كاد أن يتوقف عن ضخ الدماء في الجسد المتوتر من هول ما رأت العين التي أرسلت إشاراتها للمخ الذي أشار إلى العصب بالتوتر بعد أن أرسل إليه اشاراته السريعة وتوقفت عضلات الجسد بسبب تقاعس القلب عن ضخ الدماء للمخ كي يكمل إرسال الإشارات العصبية ، فتصلبت الشرايين مرة أخرى من هول ما رأت عيني وسمعت أذني ، فوالله لو قصت آلاف القصص عن الاثنين ما كنت بمصدق أحدا .

تسمّرت في مكاني ولم أتحرك ، إلى أن استأنف القلب ضخ الدماء إلى المخ الذي أرسل إشاراته لعضلات الجسم بالحركة بعدما أُفقت من الغيبوبة التي أصابتني ، فطلب من الاثنين أن يسترا أنفسهما بلباس يظللهما من الفضيحة والعار ، فلبسا بعد أن أدرت ظهري لهما واقفًا في وجه عوض الذي أصيب بسكتة دماغية ولم يتكلم ... أمرتهم أن يتبعاني في هدوء إلى نقطة

الشرطة ، وسرنا معنا لا أحد يرانا إلا الرحمن الذي لا يغفل ولا ينام حتى وصلنا لمبتغانا نقطة الشرطة ، ودخلت بهما مكتبي ، وجلست على كرسي المكتب الخشبي وأنا لا أصدق ما حدث ، وكأني أعيش في حلم آخر من أحلامي التي لا تنتهي ، وهنا لاح بالأفق السؤال الذي سبب لي كل هذه المتاعب ... هل كل النساء زُناة ؟

- بعد صمت طويل من هول الصدمة توجهت للاثنين بالحديث ... أخر حاجة كنت أتوقعها في الدنيا إنكم انتوا الاتنين تعملوا كده ، معقول سعاد والشيخ أشرف لا حول ولا قوة إلا بالله ، مستحيل داه يحصل ، هي الدنيا جرى فيها إيه .

- ظلت سعاد تبكي منذ أن وصلنا بينما أشرف صامت لا يتفوه بكلمة واحدة ثم سألت سعاد وهي ما تزال تبكي بحرقة : ساعة شيطان يا باشا والله ساعة شيطان .

- هي ساعة شيطان ، والشيطان ضحك عليها عشان هي حمارة وجاهلة ، وأنت يا قدوة يا اللي حافظ كتاب ربنا ، يالله بتوعظ الناس تعمل كده إزاي .

- بعد صمت قليل صفع أشرف نفسه على وجهه عدة صفعات أنا حمار أنا حيوان أنا أنا ، إلى أن انفجر في البكاء كالأطفال الصغار .

- إيه حكايتكم انتوا الاثنين ، ياله كده واحدة واحدة وبالراحة فهموني إزاي داه حصل عشان أنا عايز أفهم كل حاجة ؟ ياله يا مولانا أخطب .

بدأ الشيخ أشرف بالحديث وبادلته سعاد الحوار فيما بعد ... لم ينقطع الحديث بيني وبين سعاد منذ أن مات زوجها المرحوم مصطفى ، فأنا الوحيد في القرية الذي يمكنه الدخول والخروج لأي بيت في القرية بلا رقيب ولا حسيب ، فالكل هنا لديه ثقة عمياء فيَّ كبيرا كان أو صغيرا ... كهلا وشابا ... رجلا وامرأةً ، فأنا من أدخل أي بيت وفي أي وقت شئت ، لقد استأنست بيت سعاد كما استئنست بيتي من كثرة ولوجي وخروجي منه فكنت أنا الوحيد من يطرق باب بيتها للسؤال عنها ومساعدتها ، بعد أن تركها الأهل والأحباب وحيدة .

- قاطعته قائلا : مش لوحدك يا حبيبي فيه ناس كتير كانت بتساعدها وهي عارفة الكلام داه ، صح يا

محترمة .

- سعاد : صح يا باشا ، وأنت أولهم .
- كمل كلامك يا مولانا واطربنا .

كنت دائما أوصيها بالصبر على مصيبتها ، وأن الله قد اختارها لذلك ؛ لأنه يحبها ، لأن الله إذا أحب عبدًا ابتلاه ، فكنت كثيرا ما أدعوا الله لها بالستر وتيسير الحال ، فكنت أقول لها : شدي حيلك يا سعاد المشوار لسه طويل وربنا يوقف معاكي ويسخرلك ولاد الحلال يقفوا جنبك ويسعدوكي ، رغم إنك صعبانة عليَّ يا سعاد ، لكن أنتِ عفية وقدها واقدود ، وإن شاء الله أيام وهتعدي وهتتحمليها بحلوها ومرها ، وداه حال الدنيا وقضى ربنا ، وله في ذلك حكم وملناش نعترض عليه ، لكن نقول دايما ... الحمد لله أحسن من غيرنا ، وأنتِ برضه لسه صغيرة يا سعاد ، وواحدة غيرك كانت رمت عيالها وشافت نفسها واجوزت أو لا سمح الله كانت مشيت في الحرام ، رغم إنك إترملتي بدري ، لكن اللي يشوفك يقول إنك لسه بنت بنوت ، تصدقي بالله مرة واحد شافك من كام يوم ، سألني عليكي كان عايز يخطبك ، اتجنن لما قلتله إنك

أرملة ومعاكي عيلين ، حتى الراجل ضرب كف على كف لما عرف إنك أرملة ، قلتله القدر هنعمل إيه في قضى ربنا .

وكانت بدورها تشكرني على وقفوي بجوارها ، ولسانها لا ينقطع عن كلمة الحمد لله الحمد لله ولا تخلوا من شكري على سؤالي عنها والوقوف بجوارها كوني الوحيد الذي دوام السؤال عنها بعد وفاة زوجها ، فمن كثرة دخولي بيتها صارت أُلفة ومودة فيما بيننا كانت تزيد وتنمو كل يوم عما سبقه من أيام ، حتى أصبحت العلاقة كالدماء التي تجري في العروق ، فلم يمر يوم دون أن أراها وأسأل عنها ، حتى خرج مني كلام لم أكن أقوله قط ، فكنت أدغدغ مشاعرها بالعذب الرقيق من الكلمات المخلوطة ببعض النظرات ، فذكرتها بأنوثتها كي تستيقظ وتحيا من جديد لتقترف ولو قليلًا من نعيم الدنيا وملذاتها ... ذات مرة طرقت بابها ، وكانت في أوج ساعات الحزن ودموعها لا تنقطع حتى فاضت على وجنتيها وكأنه بئرٌ انفجر من الماء وفاض دون أن ينقطع أو ينضب ، فسألت عن حالها ؟ وعن حالة الحزن التي هي فيها ؟ وإن كان حدث شيء لها ولأولادها ؟ فكانت تجاوبني أنها تعبت ولا تدري ماذا

تفعل بعد أن مات زوجها ، وكانت شكواها من هجر الناس والوحدة والانكسار .

كنت دومًا أحنو عليها ، وأصبرها ببعض الآيات القرآنية وبعض أحوال السلف الصالح الذين فاق حالهم حالها من تعاسة وفقر وحاجة ، لكنهم صمدوا وظلوا أقوياء بقوة إيمانهم وصبرهم على البلاء ، فكانت تشكرني على وقوفي جنبها ببعض العبارات : معلش يا شيخ ... أنا والله تعباك معاي ، لكن ربنا يعلم أنا قد إيه برتحلك وبرتاح لكلامك ، فعشان كده أنا بفضفض معاك بسبب وبدون سبب .

لم أكف عن نصيحتها بكل شيء وأبسط هذه الأشياء الكلمات : يا سعاد إنتي لسه صغيرة على الحزن عيشي حياتك واستمتعي بيها ، وعيشي كل لحظة فيها ، دا إنتي لسه قدامك العمر طويل ، اتبسطي والبسي واقلعي واضحكي وافرحي ، أنتِ خايفة من إيه مفيش حد هياخد عمر أكثر من عمره ، وأخرتها موتة والسلام ، فكنت أطبطب على يديها كي أهدئها وأبث الطمأنينة في قلبها المكسورة بالحزن والفقر ، باحثا عما يخفف عنها وطئة الزمن التي أتت عليها كما تأتي الدببة على

صغارها عندما تجوع فتفتك بهم بلا شفقة ولا رحمة ، هكذا تعصف الدنيا بالفقراء والضعفاء ، فتعطي الأغنياء دوما وفي المقابل تقسوا على الضعفاء ، تعهدت لها أن لا أتركها وحيدة طوال أيام حياتي على ظهر الأرض فكنت أقول لها يا سعاد : اطمني أنا معاكي ، ومش هسيبك أبدا ، وعايزك تعتبريني زي المرحوم ، وكأنه لسه عايش ، ولو احتجتي أي حاجة أنا مش هسيبك إنتي متعرفيش غلاوة المرحوم عندي قد إيه ، داه الغالي أخويا اللي مجبتهوش أمي .

بدأت سعاد بالحديث بعد أن توقف أشرف بكاءً عندما ذكر اسم زوجها مصطفى كان ينصرف الشيخ أشرف ويتركني أسبح في خيالي ، فلمسة يده هزتني وحركتي مشاعري الراكدة وأحييت الأنثى التي ماتت بداخلي من جديد ، فالحنين هجرني وابتعد عني بعدما مات زوجي ، وكانت لمسه يده هي الحدث الأول الذي وقع منذ زمن بعيد من بعد موت زوجي ، فلم يمر الموقف عليَّ كما ظننت مرار الكرام ، بل أن لمسه يده قبعت في خيالي ، وأبت ألا تتزحزح من مكانها ، ذهبت أنام ولكن كيف يأتي النوم لامرأة استيقظت مشاعرها ، وسيطر

الفكر على عقلها ، ليهاجم النوم بشراسة ويطرده من جسدي ، فالفكر عندما يأتي يخترق كل من يقابله فلا حدود ولا حواجز تقف أمامه أبدًا جاء الفكر بعد أن هجر النوم سريري وفتح لي جفوني ، حتى صار الخصام بينهما ، فالنوم والفكر يتنافران ولا يلتقيان ، فرحت أفكر فيما حدث لنفسي الضعيفة التي أوقظتها لمسة يد الشيخ أشرف ، فقصيت عليها ما حدث كما لو كنت أتحدث لشخص آخر لا يعرفني ولا أعرفه .

فرحت أصف لها بدقة ما حدث : يا سلام على الحلاوة ... ايده حلوة قوي ، أنا كنت مبسوطة وطايرة من الفرحة ... عاملة زي الطيارة النفاسة اللي طايرة فوق فوق فوق وقربت تلمس السما ، لأول مرة بدأت يا سعاد تحسي بالحنية دي بعد ما مات جوزك ، وتعمقت في لب الخيال ، واسترسلت أكثر فأكثر : آه لو كان ضمني بين درعاته وخدني في حضنه ، آه لو اترميت في حضنه كده ، وقعدت على طول والله ما أسيبه أبدًا ، داه الحضن وحشني قوي يا ولاد ، آه لو بين ايديا دلوقت ، مكنتش اترددت لحظة إني أقطعه ، آه والله أقطعه .

شردت الذهن فجأة وسعاد لا تزال تكمل سردها ، فقلت

في نفسي لقد حلمتُ سعاد بمعانقته لتسطر فاستبدلت مكانها ورحت أسطر بعض أبيات الشعر الذي أهواه منذ صغري ... أعانقه في لحظات السكوت والسكون ، وليقع ما يقع حتى وإن اتهمني الناس بالجنون ، وشاعت بين الناس الظنون فليكن ما يكون ، فأنا انثى ومن حقي أن أكون أعبر عما بداخلي من عشق مكنون ، فأنوثتي وشبابي وجمالي لن يضيع بعد اليوم هباءً منثورًا .

أفقت نفسي من حالة الجنان الشعري الذي سيطر عليَ للحظات وعدت مرة أخرى استمع لحديث سعاد ... لم يطرق أحدا باب بيتي إلا الشيخ أشرف وإحدى الجارات وتدعى أم سعد ، والتي لم تكن تأتي للسؤال عني بل كانت تأتيني لتتبع أخباري ، فأم سعد امرأة حشرية تعرف ما ببيتي وما ببيوت القرية ، فهي تبحث عن أي خبر أو معلومة جديدة تضيفها إلى كنز ملعوماتها التي جمعتها من هنا وهناك ، فكل أخبار القرية وأسرارها عند تلك المرأة الفضولية ، فهي بئر عميق من الأسرار ، حولتها كثرة الأخبار التي جمعتها إلى كرة من الثلج ، فأصبحت ممتلئة الأركان عريضة الأكتاف كالثيران ، تكاد أعينها

تختفي من كثرة انتفاخ وجهها المدبب كرغيف الخبز الشمسي المستدير .

وعندما تجلس فكأن كومًا من القش قد جمع وارتفع ، فأم سعد هي المرأة الوحيدة التي سألت عني ليس بغرض المودة لي ، بل طمعًا في الظفر ببعض المعلومات عني ، ورغم أنها ثرثارة وكثيرة الكلام إلا أنها كانت بصيص النور الذي أرى منه في تلك الدنيا المظلمة ، فكانت تهون علىَ وحدتي وكان معظم حديثها يدور عن سيرة الناس ، فبالأمس ألقت عليَ الصباح ، ودار بيننا حديثٌ طويل .

صباح الخير يا سعاد ، خير صباحين يا خالتي أم سعد ، عاملة إيه يا سعاد ، الحمد لله يا خاله ، أنا جيت أطمن عليكي وجبتلك شوية قمح ، أهو تعمليلك كام دبدابة للعيال يغمسوا بيهم ، قوليلي بت يا سعاد محدش جالك يسأل عليكي من أخوات المرحوم ، لا واللهِ يا خاله ، أهوه كل واحد مشغول في حاله ومحتاله .

- أم سعد : رغم إن فتحي ربنا موسع عليه ، لكن تقولي

إيه البخل عماه نساه أقرب الناس ليه ، ربنا يحنن قلبه على الصغار دول ، ما هو على قلبه كتير ، داه لو ولعوا في فلوسه النار مش هتخلص ، أنا عارفه الناس مايته في القرش كده ليه ، هو يعني لو غار ومات هياخدهم معاه ، قادر ربنا يضيع كل اللي حوشه في لحظة ، لكن أقول إيه على قلبه الحجر ، داه حتى الحجر بيحن ، وحسن ربنا يعينه على اللي هو فيه ، هو فيه حد يصدق يا ناس إن حسن أخو فتحي ... داه مش ممكن أبدا أكيد اللي ميعرفهمش هيقول آش جاب لجاب ، تقولي ايه ... ما هي البطن قلابة والدنيا غدارة يا سعاد .

في إحدى الليالي التي سيطر عليها البرود الشديد كعادة الشتاء في القرى البرد يلج في العظام ويلبث فيها لا يتحرك ، فتخشاه الناس فما أن تفرغ من صلاة العشاء حتى يهرولون مسرعين للاختباء منهُ ، في تلك الليلة جاءني الشيخ أشرف بعد أن أدى فرض الله ، وكعادته كان يدخل إلى بيتي كل يوم قبل أن يدخل بيته ، وهذه الليلة أتذكرها جيدًا ، فبعد أن دخل الشيخ

أشرف جلس منهكًا وقال لي : الليلة دي برد قوي ، الواحد حاسس إن عظمه اتكسر ، هو مفيش بص والع عندك ولا ايه ؟ فجاوبته : البص موجود دقيقة وأجيبه ليك بس أنا كنت قاعدة جوه حاطة الموقد جنبي ، اتفضل يا شيخ ، يا مرحب يا مرحب ، تشرب إيه يا شيخ أشرف ، لم يجاوبني الشيخ أشرف عن مشروبه المفضل بل قاطعني سائلًا عن أطفالي أين هم مختبئون ، فلم أسمع لهم صوت ولا حس ولا خبر ، فربما ناموا ، ما هي كل العيال بتنام في البدرية كده ، ولا أنا اللي جيت متأخر ومش دريان .

فجاوبته ... إنت صاحب بيت وليس غريب ، فتأتي كما يروق لك وفي أي وقت تريد أنت من رائحة الغاليين ، وأن الأطفال عادة ما يناموا مبكرين ، بعد أن يتناولوا عشاءهم إلا أن الشيخ أشرف طلب الإذن بالرحيل عندما علم أن الأطفال نائمون ، خشية كلام الناس وأكد بعدم رغبته في رؤية أحد لنا سويًا دون الأطفال ... كلام إيه داه يا مولانا قطع لسان أي حد يقول كلمة عليك ، دا أنت راجل شهم وكلك مروءة ، ومفيش حد يجرؤ يقول نص كلمة عليك ، ناس مين يا عم

الشيخ ، الناس دلوقت زمانها في سابع نومة ، هي دي بلدنا تتعشى وبعد ما تصلي العشاء تنام زيها زي الفراخ .

جلس الشيخ أشرف قريبًا مني لكن جلسته كانت أمام موقد النار فكان الموقد ما يفصل بيننا ، وكان في كل شرفة شاي يطالعني بنظراته الساحرة التي كادت أن تقضي عليَ ، فقال لي الشيخ بضع كلمات لم أنساها ... عيونك حلوة قوي يا سعاد ، والله أنا مستخسر شبابك وحلاوتك دي ، تيجي الممثلات اللي بتركب عدسات تشوف الجمال الرباني وتشوف عسل النحل اللي في العيون ، عسل ايه ، والله انتِ أحلى من العسل ، والعسل يجي جنبك إيه .

لم أقل شيئا فقط تبسمت على استحياء حتى أن عيوني ازدادت بريقا ولمعانًا فأحمر وجهي ، وأشرف لا يتوقف عن إلقاء عبارات الغزل الصريح بعدما كان يخفيه وكأنه بركان انفجر بناره ورماده في وجههي فلم يتوقف ولن يوقفه أحد ، فالشيخ أشرف لعب على الوتر الحساس ، فقد لوّح بقطعة لحم طازجة أمام أسد جائع ، فراح أشرف يدغدغ مشاعري ويثيرها بكلماته بعد أن أطمأن أن فريسته لن تستطيع أن تقاومه بعد أن رفعت

راية الاستسلام التام ، استمر أشرف في الكلام ممسكًا بيدي ، فهذه لم تكن المرة الأولى لقد فعلها من قبل ولم يجد أي مقاومة ووجه الاختلاف هذه المرة أنه حدّق النظر نحو عيني وراح يسبح فيهما ويغوص في العمق كما يغوص الغواص في أعماق المحيط ، شعرت أن الشيخ أشرف قد ضعف أمام عيوني الثائرة فقبل يدي بلا تردد أو خوف .

قطعت قبلته كفوفي التي هجرتها القبولات منذ أمد بعيد ، لكن الشيخ أشرف خاف من ردة فعلي على قبلته التي لامست كفوفي ، لكن لم يدري أن قبلته وضعتنا سويًا أمام مفترق طرق ، فكانا لدينا خياران إما نستكمل ما بدأنا ، أو نفترق للأبد ويذهب كل منا في طريق غير طريق الآخر ، خرج الشيخ أشرف دون أن يتكلم حتى السلام لم يقله عليَ ، لتمر الأيام وينقطع الشيخ أشرف عنا دون سبب ، فأصبتني الحيرة ورحت أطرح على نفسي السؤال تلو الآخر فظللت ظمأنة لأيام إلى أن جاء مرة أخرى ليروينى برؤيته من جديد لتدب في نفسي الحياة مرة أخرى ، فالتقينا في ليلة شبيهة بليلة الأمس ولكن بعنوان جديد اسمه « بردٌ قارصٌ « كاد هذا البرد أن يعصف بالأطفال

والشيوخ فيصيبهم في الأذان والكفوف ، وفي تلك الليلة الهادئة إلا من نقنقة الضفاضع ونباح كلاب الطرق ، جلس أشرف أمام موقد النار وكنت أجلس أمامه وكنا نمد أيدينا لنأخذنا حظنا من الدفء ، جلسنا ونحن نتحدث عن القرية وأحوالها وكان كالعادة أطفالي نيام ، وفجأة حديثنا أنطف النور فامتلأ المكان ظلام إلا عن بصيص ضوء خافت من جهبز النار الذي يقف حاجزًا بيني وبينه ، وكأنه يقول لنا هذه عقوبة من يعصي الله ، النار خالدا فيها .

ارتعدت خوفا ورجفةً من شدة الظلام ، فكنت أتحسس كالعمياء فدنوت منه خطوة خطوة حتى لامست ركبتيَ رجليهِ وأنا خائفة من شدة العتمة والظلام أترقب وأنتفض من شدة البرودة التي شلت أطرافي ، وبينما أن ذاك حتى صرخت هرة صرخة مدوية فصعقت فزعًا فوجدت نفسي دون أن أدري أرتمي في حضنه ، إنها الخضة التي رمتني بين ذراعيه دون أن أشعر ، فعلتها وسكنت بحضنه دون حركة أستنشق أنفاسه واستجبت لوسواس شيطانه ولما لا فكل الظروف كانت مهيأة في وقت ما أروعه حيث السكون يملىء المكان والأصوات معدومة إلا من

أصوات الأنفاس التي تهم ولوجًا وخروجًا معبرةً عن وجود الحياة في هذا المكان .

وما بين لحظات السكون والحركات القليلة اختفى الكلام بعد أن همّ بي وهممت به فكان كالأسد الجائع يلتهم فريسته إلا أن فريسته راحت تبادله الهجوم حتى كدنا أن نلتهم بعضنا البعض ، فأهداني قبلة وراء قبلة واستمر يمطرني بها دون وقوف حتى أن قبلاته تنقلت من مكان لمكان وصالت وجالت دون حياء أو عناء ، لقد أيقظت قبلاته المارد النائم الذي يُدعى الشهوة ، فحركه من مكانه بعد أن خلخله من مكان السكون إلى حيز الحركة ليشعل أنوثتي التي أوشكت على الموت لتدب الحياة فيّ من جديد ، وأشعلها كما تشتعل النار في فروع الشجر الجاف ، هنا سقطت في بئر الرذيلة ووقع مني ومنه ما يغضب الله ، ونسيت في تلك اللحظات أطفالي كما نسيت كل شيء ، زوجي الذي مات ، سمعتي ، أهلي ، عفتي ، كرامتي .

مرة أخرى أعود إلى سعاد التي أكملت سردها ... لم يكن لقاؤنا الأول هفوة أو سقطة وانتهت بل كانت البداية التي لا يعلم مداها إلا الله ، فصارت اللقاءات مستمرة متجددة بعدما

استبدلنا الليل بالنهار ، والنهار بالليل لقد أدمنت لقاؤه واستلذيت به ، فكلماته مازالت تضوي وتوشوشني في أُذني حتى أني مازلت أسمع صداها كما تسمع وشواش الصدف ، فما زلت أتذكر كلماته ، ما أجملك ! وما أطعمك ! أنتِ أجمل ما رأت عيني ، أنت الحلو كله ، أنا لم أشعر بما أشعر به معك مع زوجتي أم أولادي ، فلا أريد الدنيا ومتاعها بل أريدك أنتي متعتي ودنياي ، فلا أستطيع العيش دونك ، فأنت هوائي الذي أتنفسه وأنت الريحان الذي أستنشقه من الريحان .

كانت الساعات تمر علينا كنسمات طيفٍ فلا نفيق من غيبوبتنا إلا على صوت المؤذن وهو يرفع الأذان لصلاة الفجر ، ومع أذان الفجر يأذن الرحمن ببذوغ يوم جديد لنفيق مما كنا فيه ، بعدما أصبحنا كثميلان يترنحان من شرب الخمر ، فمن كثرة ما كنا فيه كنا لا ندري الفرق بين الصلوات ، هل هذا أذان الفجر أم صلاة العشاء ، ليذكرني أشرف بأنه الفجر لأنه قد صلى العشاء ، لأسأل نفسي يا الله هل أتى الفجر ، وكيف ؟ فالساعات مرت كلحظات فلم أشبع منه بعد ، يصرخ أشرف يا الله إنه الفجر يجب أن أغتسل لألحق بالصلاة فمن سيؤم

الناس إن غفلت أنا عنهم ، فرغم مرور أربع ساعات إلا أننا لم نشعر بالوقت ، كنت أخشى عليه من برد الشتاء ، فكنت أطلب منه ألا يستحم ويكمل نومته ويؤم الناس من يؤم فهو لم يخلق لأجلهم بل لأجلي أنا ونفسه .

هنا تدخلت وقلت : يا سبحان الله لقد ستر الله عليكما ، وكانت اللقاءات تمر بسلام وأمان تحت عرش الرحمن الذي لا يغفل ولا ينام ، مدبر الأمر مولج الليل في النهار والنهار في الليل ، تلك مشيئة الله ، الستر على عباده ، ليمهل العصاه فرصةً للتوبة والعودة إلى الصواب والرشد ، يستر المولى مرات ومرات ، ولكن ستره لن يدوم ولن يستمر طويلا ، ستر الستار هذه المرة واستدل بذلك الستار على تلك الليلة بغضبٍ من الرحمن .

استمر الحديث لوقت طويل فهي تحكي وهو يحكي حتى بزغت أنوار الشمس بأشعتها الذهبية مصحوبةً بزقزقة العصافير معلنةَ عن ميلاد يوم جديد يبدأ فيه العباد بالطاعات لرب البريات ، فيخرج الفلاحون إلى حقولهم ولسانهم يترطب بذكر الرحمن بالتسبيح والاستغفار ، فطلبت منهما أن يستريحا بعدما

أكثرا من التشوب في وجهي فطلبت من عوض أن يصطحبهما معًا ليخلدا للنوم لسويعات ، فتلقوا أمري لهم بالراحة والسرور وكأنني أعطيتهما صك الغفران ، نمت بعد أن طلبت من عوض ألا يبوح لأحد بما جرى بالأمس ، فأنا لا أحب النهش في أعراض الناس وسيرتهم ، نمت سويعات طويلة حتى أني لم أفق من غيبوبة النوم إلا بعد أذان العصر فكانت ضلوعي مكسورة ونفسي عن الطعام مسدودة إلا أني قاومت الشيطان ووسواسه وقمت فاغتسلت بالماء الحار ، وصليت الظهر وأعقبته بالعصر خشية قوله تعالى الذي لم يترك عقلي كلما أخرت صلاة ﴿ وَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ * الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلاتِهِمْ سَاهُونَ * الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ * وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ ﴾ .

صليت وتناولت قطعة من الجبن مع قطعة صغيرة من الخبز حبستها بكوب من الشاي لم أكملهما بسبب ضيق الخلق الذي حلَّ بي ونفسيتي التي كانت مثل الزفت ، بعدها طلبت من عوض أن يعد لي كوبًا من الشاي مع النعناع حتى أفوق من آثار الصدمة التي حلت بي .

- يا عوض : هات البيه والهانم اللي في الحجز ، ولا أقلك

طفحهم أي حاجة الأول قبل ما تجيبهم ، ولو عايزين شاي شربهم قبل ما تجيبهم هنا .

- حاضر يا سعادة الباشا .

مرت نصف ساعة ثم دخل عوض بالاثنين أشرف وسعاد فأجلستهما أمامي على المكتب ، ثم اتكأت للخلف ، وقلت لهما فلنكمل ما بدأناه بالأمس ، لقد وصلنا حيث بدأت علاقتكم المحرمة وبعدها ماذا حدث ؟ بدأ أشرف ، بعد تعدد اللقاءات التي كنا ننتظرها بأحر من الجمر ، فلقد أصبحت المعصية في دمنا حتى فقدنا الصواب وبدأت في هجر الطاعات ، فتركت صلاة الفجر بعدما أوكلت للمؤذن صلاتها إمامًا بالنيابة عني لوقت طويل ، فلم أستطع أن يمر يوم دون أن أرى سعاد ، فقد اعتدت على رؤيتها حتى أصبحت سلواي وخمري مثلي مثل السكير مدمن الخمر ، فحالي تبدل كأهل الكيف إن لم يأخذ جرعته من المخدر يركبه ألف شيطان وشيطان ، ويفقد السيطرة على نفسه فيضرب كل ما يقع بيديه حتى الحوائط لا تسلم من ضرباته .

فكانت سعاد تعلم أني غالي عندها ، ولكنها لم تتصور أن

يصل عشقي لها لهذه الدرجة الكبيرة ، فكنت دائما ما أدفق الكلمات الرقيقة إليها : أنتِ غالية الغالين وأغلى من الدهب وأجمل من الخوخ والعنب والتين ، داه الواحد من جمالك والله قرب يسب الدين ، وبعدين يا سعاد ، أنا خايف عليكي من كلام الناس ، لأنه كله مآسي وحساس ، وأنا مقدرش مجيش اشك عليك واشوفك كل يوم ، مقدرش داه أنا أموت والله ، فكانت سعاد تخشى عليَ من أي مكروه قد يقع لي ، فالموت سيكون مصيرها إن حدث ذلك .

ما كان ينكد عليَ حياتي الرعب الذي كان يلاحقني خشية أن يعلم أحد بما أفعل فستكون كارثة ، لأن وضعي كشيخ سبب لي مشكلة كبيرة ، فمن المفترض أن أكون القدوة والمثل وأن تكون أفعالي مطابقة لأعمالي فقلت لسعاد : ما الحل الآن ، أنا أخشى من كثرة دخولي بيتك ، أن نصبح مضغة في أفواه الناس ، والناس لا ترحم ولن تترك سلواها ، فاقترحت سعاد أن تترك الباب مواربًا ، على أن أدخل منه ليلًا دون أن يشعر أحد بي ، لكني كنت أخشى وقت خروجي أن يراني أحد بينما أنا أخرج ، فرد سعاد بأنها ستنظر أولا قبل خروجي من فتحة

الباب ، فرفضت الفكرة لأن بها مغامرة ، وسرعان ما عادت سعاد بفكرة جهنمية ، وهي أن أدخل وأخرج من خلال سطح البيت ، فاستعجبت من قدرة النساء على المكر والدهاء بعدما وافقت على فكرتها التي أقنعتني .

كنت أصلي العشاء كعادتي ، ثم أطرق باب بيتها أمام أعين الناس ، لأنك لو فتشت في عقول الناس فستجدني جالس متربعًا محل ثقة وتقدير ، فكنت أخرج بعد نص ساعة أو أقل وأمام أعين الناس أيضًا ، حتى لا يشك أحدًا في أمري ، وبعد أن يخلد الجميع للنوم أصعد إلى سطح بيتي الذي كنت أتعلل الجلوس فيه دوما أني أقوم بمراجعة الدروس فيه في هدوءٍ بعيدا عن الأطفال وازعاجهم ، وحتى أطرد النوم الذي يزعجني باستمرار في ساعات الليل الأولى تلك كانت علتي ، فكنت أدخل بيت سعاد كاللص المتربص الذي يلتفت حوله خشية أن يمسك به أحد ، حتى نبح الكلاب ومواء القطط كنت أخشاه ، فكنت لصًا لم يخاف الله ، فأخافه الله من كل شيء .

مرت بنا الأيام على هذه الوتيرة ونحن نلتقي حتى مطلع الفجر بعد أن تم تأمين اللقاء من بعد العشاء دون توتر أو

عناء ، فنسينا الله الذي يعلم من في الأرض ومن في السماء فالق الصبح والضياء ، فأنساني الشيطان إن غبنا عن أعين الناس فلن نغيب عن عيون من لا يغفل ولا ينام ، ونسيت ما كنت أقوله للناس أن الله يمهل لكنه أبدا لا يهمل ، يهبُ العاص الفرص لعله يتوب أو يرجع عما هو فيه ، ليحقق النجاة من الحشر مع الطغاة العصاه ، فلعل العاصي يدرك ويفطن لمسيره وآخرته ، فالعاقل العاقل من يستفيق قبل فوات الأوان والمكوث في خضم سكرات الممات الذي هو آت آت .

استمريت أنا وهي على ذلك الدرب شهورا طوال دون ملل أو انقطاع ، فما المانع في ممارسة البغاء ، الأبواب موصدة ومغلقة والناس نيام والأطفال غافلون في نوم الصبية المعسول ، فالحرام أصبح عادة يومية نمارسها ولما لا طالما نسيطر على الأمور لكنه القدر المحتوم لا يخيب أبدا الظنون ... هذا ما حدث يا سعادة الباشا ، وربنا شاهد على كل اللي قلتله أنه مفهوش ولا كلمة كدب ، أنا صارحتك يا خالد بيه وعايزك تستر عليَّ ربنا يستر عليك دنيا وآخرة ، أنا عارف إنك ابن ناس وبتخاف ربنا وجزمتك على راسي ، بس الفضيحة يا باشا ، الناس هتموتها

لو حد عرف اللي حصل ، فلوجه الله ياباشا اعفوا عنا ، ربنا يعفو عنك دنيا وآخرة .

- ياله يا دنجوان روح الحجز دلوقت ، وخد السنيورة في ايدك وبعدين نكمل ، الموضوع مش سهل زي ما أنت متخيل ، دي مصيبة كبيرة الله يخرب بيتوكم ، غير أني عايز أولع فيكم انتو الاثنين ، جاتكم القرف يا جوز حسالة ، ياله غوروا من وشي انتوا الاتنين ، يا عوض خدهم على الحجز .

مرت عدة سويعات وأنا لا أفكر إلا في الخديعة الكبرى التي وقعت ممن كنت أثق فيهما وأكن لهما كل احترام وتقدير ، فقد أوشك عقلي أن ينفجر من كثرة التفكيرة واحتساء فناجين القهوة التي لا تنقطع من مكتبي جراء الصداع الذي سكن برأسي وأبى ألا يتركها ، ففكرت وسألت نفسي : لماذا لا تكون سعاد هي التي قتلت طفليها ؟ فالأطفال هما العائق الوحيد بينها وبين ممارستها الرذيلة مع حبيب القلب ، فبقتلهما سيكون الجو خاليًا ، أو ربما يكون أشرف هو من قتل ؟ ولما لا ، فلم أتوقع يوما أن يقوم الشيخ أشرف بفعلته الشنيعة ذات يوم ، فلو

شككت في كل الناس فلن أشك فيه ، فأنا لم أكن أظن بالاثنين ظن السوء قط ، فدعنا نجرب وبالتأكيد لن نخسر شيئا .

- يا عوض اعملي قهوة وهات سعاد من الحجز
- أحضر عوض سعاد وكانت تمسك كفيها وتنظر أرضاً وهي في قمة الخزي ، تعالي يا سعاد اقعدي هنا ... مين قتل عيالك يا سعاد ؟ .
- والله يا سعادة البيه ما أعرف ، والبخاري ما أعرف يا باشا .
- يعني مش انتي اللي قتلتيهم يا سعاد ؟
- أنا يا بيه ، هو فيه حد بيقتل ضناه .
- واللهِ ممكن عشان يخلالك الجو مع عشيقك .
- يالهوي يا بيه ، أنا أقتل ، مستحيل يا باشا .
- عامةً كل حاجة هتظهر ، وهنعرف كل حاجة ، وأنا أقسم بالله ما هسكت غير لما أجيب حق العيال اللي ماتت .

- يا عوض هتلي أشرف من الحجز ، وارمي الزبالة دي مكانه ومتقعدتش الاتنين مع بعض أبدًا ، كل واحد في أوضه لوحدة يا حمار ، مش القي الاتنين مع بعض في مكان واحد زي امبارح .

- ما هو يا باشا ، إنت اللي قلت دخلهم الحجز .

- يا حمار أنا قلت دخلهم الحجز ، بس بعقلك المصدي داه ، ينفع تقعد واحدة وواحد في حجز واحد ، فكر يا غبي وشغل دماغك شوية أحسن ودين محمد أولع فيك .

- حاضر يا باشا ، يالا يا بت ، فزي وقومي قدامي على الحجز ، جبتلنا الكلام .

صممت على حبك خطتي لأتمكن من الإيقاع بهما ، فلربما نحصل على نتيجة تساعدنا في معرفة الجاني الذي قتل الطفلان البريئان ، ذهبت سعاد وحضر أشرف ووقف أمامي صامتًا حتى أني لم أعر له أي اهتمام ، فقد كنت أمسك بالمصحف الشريف ، أتلو بعض آيات القرآن الكريم ففتحه فجاءت صدفةً سورة

النور ، فوضعت أناملي على أول الصفحة وشرعت في القراءة : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 1 الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ 2 الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ 3 وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ 4 إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ 5 ﴾ .

بكى أشرف وأجهش في البكاء عند سماع كلام المولى تبارك وتعالى ، إلا أن قلبي لم يرق له ، فأخذت أعيد وأكرر في تلك الآيات وكأنه جان سكن الجسد فأخذت أقرأ عليه آيات الرقية حتى أخرجه بعد أن عذبته بالقرآن الذي نزل عليه ، فكلما قرأت زاد أشرف في بكاؤه وبعد قراءة وتكرار توقفت بعد أن صدقت بالله العظيم ، ثم سألت أشرف ... مين قتل عيال سعاد يا أشرف ؟

- وأنا ايش عرفني يا باشا ، أنا غلطت آه ، بس متوصلش أني أقتل ، هو أنا مش بني آدم ولا إيه ؟ ...يا باشا أنا غلطت غصب عني ، وكانت ساعة شيطان وراحت لحالها ، وأنا تبت يا باشا وإن شاء الله ربنا يغفر لي .
- تحلف يا أشرف على كتاب ربنا ، أنك مقتلتش العيال .
- أحلف يا باشا بكتاب الله .

غُصت في التفكير تارة أخرى ، وقلت في نفسي ... أنه لم يمانع في الحلفان باليمين فبالتأكيد هو صادق ؛ لأنه يعلم تمامًا عاقبة اليمين الغموس ، فاستبعدت أشرف من حسباتي تمامًا ، ووجهت بوصلة شكي وبحثي نحو اللصوص الذين جاءوا لسرقة سعاد ، فشكي أن الأطفال كشفوا أشرف فقتلهم حتى لا يفتضح أمره أمام الناس أصبح أمرًا مستبعدًا ، خرجت من مكتبي ورحت أتجول في النقطة .

وبينما أنا أفكر خرق نحيب سعاد أذني وهي تقول : ياهوي يا فضيحتي ، يا مصيبتي ، يا مصيبتك يا سعاد يا فضيحتك يا سعاد ، فقلت في نفسي : لعنة الله عليك أيتها

الفاجرة ، فمصيرك النار بإذن الله ، ظللت أنا أدعوا وظلت هي تبكي فكنا في سباق ومناسفة لمن تكون الغلبة في النهاية ، إلا أنها انتصرت بعدما انحسر السباق عليها بعد أن انسحبت ، فضعفت أمام نحيبها الذي طاردني حتى باب النقطة ، فطلبت عفو الله عما أسلفت بعد أن حن قلبي لها ، فعدت أدراجي وولجت بمكتبي ، وطلبت من عوض أن يأتي بها في عجالة ، جاءت المرأة التي قطعت أوصالي ، فقلت لها يا سعاد : توبي إلى ربك وارجعي ، فما فعلتيه كان فاحشة مبينة اهتز لها عرش الرحمن ، فأنت لم ترتكبي أثمًا واحدًا بل عدة آثام ، فسألي الله أن يغفر لك ويتوب عليكي .

ارتعدت سعاد خوفًا وقلقًا حتى أن يدها لم تكف عن الرعش والحركة وكأنها وضعت على جهاز هزاز ، فتحول وجهها الأبيض للبرتقالي بفعل الخوف والحركة ، والله يا باشا ما أنا اللي قتلتهم وربنا يشهد على كده ، تطرقت سعاد لجريمة القتل التي وقعت رغم أني لم أوجه لها أي اتهامات بالقتل ، فما قلته أنها أذنبت في حق نفسها بفعلتها التي لا تغتفر ولزامًا عليها التوبة ، إلا أن القلق الذي انتابها عاد ليثير شكوكي من

جديد ، ولِما لا ، فمن يفعل الذنب الصغير يفعل الكبير ، فرحت أضربها بصيات السؤال ، يعني هيكون مين قتلهم يا سعاد ؟ ما هو يا انتي يا الشيخ أشرف مفيش حد غيركم ليه مصلحة أن العيال تموت .

- واصلت ما قد بدت من النحيب ، أشرف كان بيحاول يسكتهم بس ، لكن اللي حصل قضاء ربنا ، ... يعني انتي بتتهمي أشرف انه هو اللي قتلهم ؟ ! لا يا باشا ، أنا مقلتش كده ، أنا بقول أشرف هو الوحيد اللي كان بيسكتهم لما بيبكوا ، انتي بتستهبلي يا روح أمك ولا إيه ؟ ! يعني أشرف بريء من قتل عيالك ، أيوه يا باشا بريء والله ، يبقى أنتي اللي قتلتيهم ، وأنا هلبسهالك هلبسهالك عشان انتي مرة وسخة ، لا يا باشا ، أنا مستحيل أعمل كده في عيالي ، هو فيه حد يقتل ضناه يا باشا والله ما أنا والله ما أنا .
- صرخت بأعلى صوتي يا عوض : هاتلي الحيوان اللي في الحجز ، لما أشوف إيه حكاية ولاد الذين دول معايا ، وخد الحيوانة دي خليها في الاستراحة بتاعتي واقفل

عليها واياك حد يعرف هي فين ، وأنت لو سمعت صوتك طلع هضربك بالنار فاهمة ولا أفهمك ... فاهمة والله فاهمة يا باشا .

- جاء أشرف من الحجز فوقف أمامي وقلت له : دلوقت يا أشرف سعاد بتقول إنك أنت اللي قتلت العيال وداه كان غصب عنك عشان العيال عرفوا إنك بتنام مع أمهم في الحرام .

- أنا مستحيل يا باشا أعمل كده ، أنا بخاف ربي والبت دي إجننت ولا إيه ؟ ! أنا الوحيد اللي كنت بساعدها ، وداه كان على إيدك يا باشا ، فازاي أنا أساعد وإزاي أنا اللي أقتل .

- عشان الجو يروق لك .

- ما الجو كده كده خالي ، ما أنا بدخل وبطلع في أي وقت يا باشا ، فليه أقتل ، وبعدين أنا حافظ كتاب ربنا ومستحيل أعمل كده .

- هاتلي سعاد يا عوض ، من الاستراحة وأنت خليك واقف هنا ، جاءت سعاد وهي تكفف دمعها ، نعمين

يا باشا خلاص يا سعاد كل حاجة ظهرت وأنا عرفت مين اللي قتل العيال ، يا عوض خد الحيوان داه وارميه في الحجز وبكره نخلص إجراءاته ونفرج عنه .

- رد أشرف وهو يكاد يفر من الفرحة ، دا أنا يا باشا .
- أيوه إنت خلاص مفيش داعي نحجزك أكتر من كده ، ما دام عرفنا مين القاتل .
- خرج أشرف وهو لا يصدق نفسه ، ووقفت سعاد صامته حائرة وسرعان ما زال صمتها بعد أن قالت ، صحيح يا باشا هتفرجوا عن أشرف .
- آه صحيح .
- طايب وأنا هطلعوني معاه يا باشا .
- أنتِ لا ، ازاي نفرج عن واحدة قتلت عيالها ، خلاص يا سعاد كل حاجة انتهت أشرف حكالي على كل حاجة ، إنتي قتلتي عيالك بعد ما عرفوا اللي بينك وبين أشرف وإنك بتاخدي فلوس عشان تعملي مع أشرف الغلط ، وعشان تداري فضيحتك قدامهم ، قتلتيهم بعد ما

العيال هددوكي أنهم هيحكوا للناس على اللي بتعمليه .

- أنا لا والله يا باشا ما حصل ، وأخذت تلطم خدودها وتصرخ والله بريئة يا بيه والله العظيم بريئة ، داه أشرف اللي قتل يا باشا مش أنا ، أنا كنت نايمة معاه ودخلوا علينا العيال وشافونا فمسك حنك الواد (فمه) عشان ميصرخش فاتخنق ومات في إيده غصب عنه والله يا باشا .
- يبقى هو قتل الواد وانتي قتلتلي البت ؟ !
- أشرف اللي قتل عيالي يا باشا .
- صرخت بأعلى صوتي حتى كادت حنجرتي أن تخرج من فمي ونايت : يا عوض إنت يا زفت ... حضر عوض وركبه تهتز كأنها جان ، نعمين يا باشا ، هتلي الحيوان أشرف من الحجز .
- جاء أشرف وبينما هو يدخل المكتب وقفت ودنوت منه وصفعته على وجهه صفعةً أخرجت فيها كل قوتي وطاقتي فأسقطته أرضًا ، إنت بتضحك عليَّ يا ابن

الكلب يا مجرم يا عديم الرحمة يا اللي ما عندك دين ولا أخلاق ، خاف من ربنا يا أخي إنت إيه معندكش قلب ، تقتل الطفلين مرة واحدة مفيش رحمة في قلبك يا أبو قلب حجر .

- خلاص سعاد اعترفت عليك وقالت كل حاجة ، نظر أشرف إلى سعاد نظرة حادة تبعها صوت خشن ممزوج بالغضب أنا اللي قتلت عيالك يا سعاد ؟ .

- تنهار سعاد وتلطم على وجهها ، أيوه يا أشرف ، إنت اللي قتلت ، إنت اللي خنقت محمد وقتلت هويدا بالمطوة اللي كانت في جيبك ، أيوه إنت القاتل يا أشرف .

- لا مش أنا يا سعاد لوحدي اللي قتلت ، إنتي كمان قتلتلي معايا ، هنا لم تتمالك سعاد نفسها فراحت تضرب أشرف على وجهه وصدره وهي تصرخ ، يا قاتل يا قاتل حرام عليك عيالي منك لله منك لله إنت اللي عملت كده فيَّ ، منك لله وراحت تكفكف دمعها .

- هنا تدخلت . . كده كل حاجة ظهرت ووضحت ، يبقى أنتوا الاتنين اشتركتوا سواء في قتل العيال ، يبيقى انتوا الاثنين إعدام إن شاء الله وعلى المفتي عِدل ، وأنا اللي هلبسكم البدلة الحمراء ، ثم وجههت كلامي لأشرف ... قتلت العيال ليه يا منافق خفت على نفسك من الفضيحة ، إنت زاني وقاتل ، وهتقول كل اللي حصل بالأدب أو بقلة الأدب وبالتفصيل ، أنا هقلعك هدومك وهعلقك من رجلك وهحط العصاية في كل حتة فيك لغاية لما تقولي كل حاجة حصلت وبالتفاصيل ، وعندي شهود عليك يا وسخ ، وكدا كدا القضية اتقفلت وكده كده هتغور في داهية يا منافق ، فوفر على نفسك البهدلة وقلة القيمة ، وقولي اللي حصل بالتفصيل ، خفق أشرف رأسه والدموع تذرف من عينه كأنها حبات مطر منهمرة وأجهش في البكاء ، وأخذ يكفكف دموعه بطرف جلبابه العريض ، مرددًا أستغفر الله أستغفر الله وأتوب إليه .

- ممكن أقعد يا خالد بيه ، لو سمحت يعني .

- اترزع يا سيدي وخلصني ، احكي ولخص ، عشان أنا

كارهك وعايز أولع فيكم انتوا الاثنين وخاصة إنت يا منافق .

تتدخل سعاد قائلةً : أشرف خنق ابني محمد بيديه بعد ما حط ايده على حنكه (فمه) كان قاصد يسكته ، لكن ابني أبى أن يصمت أو يرضخ للذل والعار رافضا كل أشكال الاستلام ، فظل يصرخ ، وأشرف يحاول أن يكمم فمه خوفًا من يُكشف أمرنا بين الناس ، لكن صرخات ابني كانت قوية مدوية زلزلت أركان البيت ورجرجت فؤادي الذي ارتعد خوفًا من صراخه الذي أشبه ذئير الأسد .

هات اللي عندك ، أريد السماع منك ، ذات يوم كنت عند سعاد أمارس معها الحرام كعادتنا في ساعات الصباح الأولى ، وبينما نحن على حالنا ، إذا بمحمد ابن سعاد يستيقظ على أصوات آهاتنا وقبلاتنا ، فرى الطفل وسمع ما لم يكن يتوقعه ، فكان يقف خلفنا ونحن لا ندري أنه يرى ويسمع ، فلقد كانت أمه عارية في أحضاني أنا ، أنا رجل الدين العفيف قدوة البلد وكبيرها ، فأي طفل لا يرضى أن يرى أمه في هذا الموقف مع أبيه حلالها وزوجها ، فكيف برجل غريب ،

فكانت الصدمة كبرى على طفل صغير ، لم تكن لديه القدرة على تحملها ، فانطلقت صرخاته وقد رجت أركاننا ، . فقمت مسرعًا وأمسكت بفمه كي يكف عن الصراخ ، إلا أنه أبى الكفاف ، فكانت صرخاته قوية كادت تقذف بيدي بعيدا عن فمه من شدتها ، فوضعت كل قوتي في يدي وأمسكت بفمه ولم أدرى أنه يختنق رويدا رويدا ، بعد أن منعت الهواء أن يتدفق إليه دون أن أدري أنه يموت ببطء .

قاطعت حديث أشرف وقلت في نفسي كان الله في عون الطفل ، فالصغير يغار على أمه ويغضبه إن رأى أبوه يلمسها أو يداعبها ، فما بالك بتلك الفاجعة التي كانت كفيلة أن تهز أركان أي إنسان ناضج .

عدت إليه ثانيةً لأستمع لما كان يقول ... لقد انهار الطفل وسقط من بين يدي كما يسقط الماء من الكفوف ، سقط الطفل ليسقط معه قلبي وأعصابي التي ذهبت وتركتني أقابل هذا الموقف وحيدًا ، ظننت في باديء الأمر أنه مغمًا عليه ، ورحت أقلب الفتى يمينًا ويسارًا كي يتحرك لعله يفيق من غيبوته ، وبينما أنا أقلبه كانت أخته هويدا تتبع صرخاته ، فجاءت كي

تلبي نداؤه باحثة عن مكانه بعدما أعطاها إشارة الاستغاثة الأخيرة طلبًا للنجدة ، فلبت النداء لعلها تغيثه وتنقذه أو ترحمه فتتلقى عنه ما قد يهلكه . وإذا بالطفل ساكن لا يتحرك ، إلا أنني لم أفقد الأمل فرحت أرفع يده التي سقطت وسقط معها الطفل للأبد لتفاجئني هويدا بصرخاتها ، وكأنه مشهد سينمائي استبدل فيه المخرج الطفلة بالطفل وطلب إعادته مرة أخرى ، وفي هذه المرة طلبت سعاد مني أن أمنع طفلتها من الصراخ خوفًا من الفضيحة ، فقد رأتنا الطفلة ونحن عرايا نقتل أخاها ، ودون أن أشعر رأيت الدم ينهمر من بطنها فأنا لا أدري ماذا حدث ؟ ولا أدري كيف طعنتها ؟ !

لقد انهارت هويدا ابنت العشرة أعوام عندما رأت مشهدًا خياليًا لا يتحقق إلا في الأفلام الدرامية ، فهذا بالتأكيد ضرب من ضروب الخيال لا يستطيع العقل أن يصدقه ، فما بالك بطفلة صغيرة تستفيق على أجساد عارية وأخ ميت .

- صرخ أشرف يا سعاد : مش إنتِ اللي قلتي هويدا هتفضحنا يا أشرف ، هويدا هتخلي سيرتنا على كل لسان يا أشرف ، إلحق شفلك حل يا أشرف .

- لكن إنت اللي قتلت يا أشرف ، إنتَ اللي قتلت بنتي ، إنت اللي طعنتها في صدره وبطنها ، بعدها هرب أشرف وتركني وحيدة كما كنت وكما خلقني ربي بلا زوج ولا رفيق ، أدبر أمري بنفسي ، فالأطفال أطفالي والبيت بيتي والفضيحة فضيحتي والعار عاري ، جلست أمام طفلتي المنحوة وابني المخنوق أفكر بعد أن قتلهما أشرف بلا شفقة ولا رحمة بكل خسة وهوان .

فكرت بدهاء كما فكرت من قبل ، فخرجت من بيتي في الصباح ، ثم طلبت من إحدى جيراني أن توقظ أطفالي بعد ساعتين لكي تطعمهما طعام الفطور ، فأوهمتها أني ذاهبةً إلى السوق لإحضار بعض الخضروات ، ذهبت وبعد ساعتين ذهبت الجارة لتنفذ ما أوصيتها به ، فإذا بها ترى ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، طفلان ميتان وغارقان في بحر من الدماء ، صرخت الجارة مفزوعةً ، وهنا نجحت خطتي بإحكام فقد ظنت الجارة كما خططت أن اللصوص انطفأت من قلوبهم الرحمة فجاءوا يسرقون ، فعندما انكشف أمرهم فعلوا فعلتهم وقتلوا الطفين ، عبأت المكان بالصراخ الذي ملىء المكان

ليأتي الناس من كل حدب وصوب باتجاه صرخاتها ، ليجدوا ما وجدت ، وما أن رجعت على صرخات جارتي مثلي مثل الجيران ، وما إن وصلت البيت حتى ندب وجنتي وجلست على الأرض أصرخ وكأني أشاهد ما حدث لأول مرة .

هنا قد اسدل الستار على تلك الجريمة النكراء ، بعدما عُرف من القاتل الذي أوقعه القدر هو ومعشوقته بعدما شاء الله أن يفضح سترهما ، راح الطفلان من أجل متعة زائفة ، راح الطفلان بسبب علاقة وضيعة بين اثنين ، فربما القدر كان بهما رحيما ليتركا الدنيا بمن فيها حتى لا يكونان ملوثان بفاحشة أمهم التي كانت ستلحق بهما العار يوما ما ، مات الأطفال على يد الشيخ الذي لم يقتل بل الأم هي التي قتلت .

أحلتُ الاثنين إلى النيابة بعدما أغلقت المحضر وسلمت الجناة للمحكمة التي قضت بإحالة أوراقهما إلى فضيلة المفتي ، ما أفزعني يا دكتور هو مشهد الطفلين ، فالطفلة لطخت دمائها جسد أخيها ، وكأنها تحتضنه ، فملئت المكان بالأنات والآهات ، والمرأة يا دكتور إن أرادت فعلت ودبرت وخططت

وهيأت وفصلت ونفذت في هدوء دون أن يعلم أحد ، فبعض النساء لديهن قدرات فائقة على فعل المنكرات حتى في وجود الأزواج والأبناء ، الذي إذا شكَ في سلوكها يومًا ، راحت تهاجمه وتخدعه بدموعها التي لا تنضب إلا بنضوب الشك والريبة من صدره ، فإني رأيت العجب في تلك القصة ، فكيف لأم تجلس ولا تتكلم ولا تصرخ ولا تأن ولا تبكي ولا تغضب ، لقد ماتت المشاعر وانطفأت أضواء الرحمة من قلبها تجاه فلذات أكبادها .

هنا انتهت الجلسة الأولى ، بعدما قصصت بداية الشك والريبة التي تسلل إليَ جراء عملي ، فالشيطان وسوس لي أن كل نساء الأرض زناة خائنات لأزواجهن ، طلبت من الطبيب الرحيل ، فقلت له : أنا تعبت النهاردة وهجيلك وقت تاني نكمل أنا بصراحة فصلت خلاص .

- ماشي نتقابل الأسبوع الجاي في نفس الموعد ، وأنا هكتبلك على نوع برشام تاخده لما تحس نفسك متوتر ، هو هيهديك ، ويخليك تعرف تنام .
- يا ريت يا دكتور عشان أنا كده هموت من قلة النوم .

الجلسة الثانية

خائنة تحت الحصار

ذهبت إلى الطبيب كي أستكمل جلسات العلاج التي اتفقنا عليها سويًا ، لعلي أجد حلًا مما أنا فيه ، دخلت عليه وكانت الساعة تشير إلى السادسة مساءً في عيادته ذات الإضاءة المريحة التي كانت تسري في جسدي كما يسري البنج الموضوعي الذي يجعلك نائمًا مستيقظًا فلا تشعر بمكان الألم .

- السلام عليكم ، الدكتور موجود ، أنا عندي موعد معاه دلوقت ؟
- أهلا وسهلا بحضرتك ، آه هو موجود ، حضرتك خالد باشا .
- افضح أمي وسيح ، أيوه خالد باشا يا سيدي ، وحياة أمك لو حد عرف أني بجي هنا يا أكون رميك في حتة مبتطلعش فيها شمس لغاية لما تعفن جواها .
- هو أنا أقدر يا باشا ، أنا لا شفتك ولا أعرفك ؟
- كده فلة ، أديله خبر إني جيت .

- اتفضل يا باشا هو في انتظارك .

ولجـت مـن بـاب غرفـة الطبيـب لأجـده يضـع قلـمًا في فمـه ، ويجلـس متكئًـا عـلى كرسـيه الجلـدي ثـم قـام واعتـدل عندمـا رأني في وجهـه .

- اتفضل يا كابتن خالد
- أهلا وسهلا يا دكتور
- تشرب إيه ، ليمون ، شاي ، قهوة .
- قهوة على الريحة لو تكرمت .
- يرفـع الدكتـور سـماعة هاتفـه الـذي يجلـس عـلى مكتبـه الفسـيح بأنتخـة وينـادي عـلى مسـاعده محمـود ، هـات ليمـون للباشـا يـا محمـود .
- قلـت في سريـرتي أنـتَ دكتـور غتـت – عـلى فكـرة أنـا طلبت قهـوة يـا دكتـور مش ليمـون .
- آه ، ما أنا عارف ، بس الليمون أحسن من القهوة .
- اسـتغربت مـن فعلتـه وحدثـت نفـسي ثانيـةً ، شـكلك ابـن

مجنونة ولاسع وهي مش نقصاك والله ، ماشي يا دكتور ليمون ليمون مش مشكلة .

طلب مني الجلوس على أريكته بعدما شربت الليمون ثم أطفء النور إلا من بعض الأضواء الخافتة التي تشعرك بأنك بحاجة إلى الراحة والنوم ، استرخيت حسب أوامره

- قال لي الطبيب : حاسس بآيه دلوقت يا كابتن خالد .
- حاسس أني عايز أنام .
- تمام يا كابتن ، إيه بقى اللي خلاك تشك أن كل الحريم وحشين وخاينين وكلهم ولاد حرام .
- والله زي ما قلتلك المرة اللي فاتت حاجات كثير لكن فيه كام قصة هما بصراحة اللي خلوني معنديش ثقة في واحدة منهم .
- قصة سعاد والشيخ .

مش القصة دي بس ، فيه قصص كتير ، انت أكيد سمعت عن قصة الكاهن اللي زلزت مصر في التسعينات بتاعة الراهب

اللي كان بيسجل شرايط فيديو للحريم ويمارس الزنا معاهم بعد أن كان يهددهم بفضح أمرهم ، أنا مقتنع أن الموضوع داه ملهوش علاقة بفئة معينة ، ومش معنى أن فيه شيخ غلط أو كاهن غلط يبقى كل المشايخ وكل الكهنة أوساخ بالعكس فهناك رجال دين وما أكثرهم نخلع لهم القبعات إجلالا واحترامًا فهم رمانة ميزان البلد ، أنا اتعرضت لمواقف كثيرة في حياتي وشفت بلاوي تعمل مجلدات عن الخيانة ، لكن فيه قصة تانية أثرت فيَّ جدا ، ودي حصلت معايا من كام سنة .

- حصلت فين القصة دي ؟

أنا طبعا بعد ما قبضت على سعاد وأشرف وحليت القضية في وقت قياسي الموضوع سمع في المديرية ، فقرروا أنهم يكفؤني ، فطلعوني دورة تدريبية في إحدى الدول العربية الشقيقة ، وكانت الدورة عن مكافحة الجريمة المنظمة والفساد المجتمعي وكانت فرصة طيبة لتبادل الخبرات والتقنيات الحديثة في المجال الشرطي نتيجة الخبرة التي يتمتع بها بعض الضباط الذين حضروا معنا الدورة من قطاعات البحث الجنائي وأمن الدولة في أكثر من دولة عربية ، فقد أعقب الدورة التنقل عمليًا لبعض الدول

العربية منها الإمارات والعراق وفلسطين ، الدورة كانت من ضمن البرتوكلات الموقعة في الجانب الأمني للدول العربية فعقدت تحت مظلة جامعة الدول العربية .

ختمت الدورة التدريبية بالتنقل برفقة بعض الزملاء إلى إحدى المدن التابعة لدولة فلسطين الشقيقة ، التي مكثنا فيها عدة أيام لتبادل الخبرات في إحدى مدنها ، وكانت هذه المدينة محاصرة من جهات عدة ، نظرا لوجود بعض الحركات الإسلامية التي تمثل تهديدا صارخًا لدولة الاحتلال ، الذي فرض حصاره عليها من كل الجهات ، وكان دخولنا للمدينة صعبًا حيث تم التنسيق مع الجهات الأمنية لدولة الاحتلال كي يسمح لنا بالدخول لإلقاء عدة دورات تدريبية في العلوم الأمنية ، وقد اطلع المحتل على ملفات الدورة التدريبية بكل تفصيلها قبل أن يسمح لنا بالدخول ، وهذا حدث بالتنسيق مع الجهات الأمنية في بلدي ، وما إن دخلنا المدينة حتى رأيت الشمس تتساقط بأشعتها الذهبية على مياه البحر الأبيض ، لتشكل صفحة ناصعة البياض تؤرق من يراها ، لأن المياه تحولت لمرآه تعكس ضياء الشمس بأشعتها القوية على عينك

فتصيبها بالأذى إذا أطلت إليها النظر ، المدينة المحاصرة ذات كثافة سكانية عالية ، وليست لها أي موارد طبيعية غير الموارد البشرية ، فيبحث أهلها عن فرص العمل التي بالكاد يجدها في ظل عدد السكان الكثيف من وجهة ومن الحصار الي طوقها من جهة .

وكان يرفقنا إلى هناك أحد الضباط الكبار في السلطة الفلسطينية ويدعى خالد حيلان ، كان رجلًا لطيفًا ترتسم على وجهه المحمر ابتسامة عريضة نادرًا ما تفارقه أو تتركه وحيدا ، فتصحبه أينما كان ووقتما تكلم أو حتى سكت ، كان حيلان رجلا طويل القامة متوسط الضخامة خفيف الظل يرتدي بذة عسكرية زرقاء مموهة ببعض الألوان السوداء ، وكان عندما يقف يضع يده اليمنى على وسطه ويشير بيديه اليسرى عندما يتحدث وكان يرتدي ساعة بنية دائرية بها أرضية صفراء ماركة أولكس .

لم تكتف الساعة عن مداعبتنا أثناء لقاءنا فتخطف أبصارنا وننظر للأرض خجلنا منها بعدما تعكس أشعة الشمس إذا سقطت عليها فتحولها مباشرة إلى وجوهنا ، وكان حيلان ذالك الرجل الطويل أكثر الناس ترحابًا بنا منذ أن وصلنا أرض

فلسطين ، فكان يذلل العقبات التي تقف أمامنا ، ومكثنا معه يوما وليلة بعدها قسمنا لمجموعتين الأولى مكثت في أريحا والثانية في غزة .

كنت أنا مع المجموعة التي مكثت في غزة في إحدى المناطق المتاخمة لحدودنا المصرية مع فلسطين ، وصلنا لغزة بعد غروب الشمس التي أبت أن تضايفنا وتوارت عنا مسرعةً إلا أن القمر كان أكرم منها ، وصلنا لأحد أقسام الشرطة لنقضي فيه عدة أيام للتدريب العملي على ما حصلنا عليه خلال الدورة التدريبية ، ومن ثم تبادل الخبرات فيما بيننا وبين الضباط في تلك المدينة ، وما أن وصلنا كان في استقبالنا ضابط من ضباط السلطة الفلسطينية يدعى عمار خلف ، وكان عمار شابًا ثقيل الجسم والدم .

له لحية كثيفة الشعر وعينان سودويتان واسعتان يقف فوقهما حاجبين عرضين وبشرة سمراء تزداد بريقًا ولمعانًا كلما انحبس الماء من الوجه ، ولعمار جسد متوسط القامة ممتلىء بالشحوم وخاصة في منطقة الصدر كأنه فتاة يافعة في مرحلة البلوغ بدأ نهديها في الظهور والتضخم .

ولعمار صوت خشن وكأن شيء ما حال بين دخول الهواء وخروجه إلى حنجرته ، فينتج عن ذلك صوتا غريبا أقرب لنقيق الضفاضع ، وعندما يتنفس تشعر بأن شيئًا ما في صدره يحبسه ويمسك به بكل ما أوتيَ من قوة خشية أن يظهر هذا الشيء للناس فيفتضح أمره ، ولكن عمار في مجمله شابٌ مقبول وإن كان يتظاهر بخفة الدم التي أبعد ما يكون هو عنها ، رحب بنا عمار وتعهد للضابط الكبير خالد حيلان بالإعتناء بنا وكنا ثلاثة ضباط من دولة واحدة أنا واحدٌ منهم ، انصرف خالد حيلان بعد أن طلب منا عدم التردد في الاتصال به في حالة احتياجنا لأي شيء داخل المدينة أو خارجها .

جلسنا على الأريكة وكانت عريضة مكسوة بالجلد الأسود الذي وضح عليه مرور الزمن وتقلبت الدهر عليه ، فذهب لونه واختلط بألوان أخرى قللت من لمعانه بعكس الأريكة التي كانت في مكتبي بالقاهرة ، وإن كانت تشبه بعض الشيء الأريكة التي كانت بمكتبي في مدينة الفيوم ، وإن كنت أرجع سبب هلاك تلك الكنبة لعمار الثقيل الدم والجسد ، فلربما كان ينام عليها هذا البغل ويتقلب بعنف حتى دمرها وقلل من

عمرها الافتراضي .

وما أن جلسنا حتى أحدثت الأريكة صوتًا مزعجًا ، هنا أيقنت أن من أهلكها هو الثقيل عمار ، تعلق نظري بصورة للمناضل الكبير ياسر عرفات الذي مات بمرض غير معلوم في إحدى الدول الأوروبية ، فالجميع يشك أن الاحتلال من قتله بالسم ، لأنه كثيرا ما سبب حرجًا دوليًا وعالميًا للمحتل ، فجعله في غاية الحرج أمام المجتمع الدولي ، كانت صورة المناضل الكبير تتوسط الحائط خلف مجلس عمار الذي كان يضع يده على مكتبه الفقير المصنوع من الخشب نامت عليه قماشة خضراء عليها مطفأة سجائر ممتلىء على أخرها وبعض الأقلام والأوراق .

وما أن بدأ عمار في الحديث حتى قدّم لنا السجائر كتحية فرفضناها لأننا لم نكن من المدخنين إلا واحدا منا أخذها منه وهو يبتسم ، بدأ عمار في شرب السجائر الواحدة تلو الأخرى دون توقف فحول المكان لشبورة من الدخان الكثيف ولون أصابع يده للون البني ، أحضر لنا عمار القهوة التي أصر أن نحتسيها رغم كرهي للقهوة في ذلك الوقت وتبادلنا التعارف

والتحيات التي لم تخلوا من عبارات الترحيب والمجاملة وظللنا على ذلك حتى جاء موعد العشاء الذي فتكنا به بعد عناء السفر ، ليصطحبنا عمار إلى أعلى القسم لنجد مضجعنا الذي لم أتفحصه من شدة التعب ، فرحت أغوص في النوم العميق بملبسي وحذائي .

وأشرقت الأرض بنور ربها لتعلن عن مولد يوم جديد ، فاغتسلت وبدلت ملبسي وحذائي الذي حملني مع ذرات التراب التي صاحبته ، ومر اليوم الأول علينا بسلام ، فلم يكن شيء يذكر إلا بعض المعاملات الروتينية للقاطنين في المدينة الذين بدا على وجوههم الحزن محبوس الدموع ، قضينا معظم الوقت في تبادل التحيات والأخبار عن بلدنا والمنطقة ومميزات وعيوب المكانيين .

وما أثار انتباهي للوهلة الأولى تعامل الشرطيين مع الناس في البلدة فكان قاسي حقا ، ومخالفًا لما كنت أظنه قبل القدوم إليهم ، وسألت عمار فيما بعد عن أسباب تلك المعاملة الجافة من الشرطة مع المواطنيين البائسين الذين يعانون الأمرين ، أجابني عمار بأن ذلك من الدواعي الأمنية التي تستوجب

أن يعيش الناس في هذه البلدة في حالة من الخوف والقلق وخاصة من رجال الشرطة حتى لا يقعون فريسة في يدي جهاز الاستخبارات التابع للجيش المحتل ، الذي يدفع كثيرا من المال نظيرا تجنيد جواسيس له في البلدة يمدوه بالمعلومات السرية عن قائدي فصائل المقاومة التي تقلق المحتل وتسبب له الازعاج والذعر والخوف دوما له ولشعبه الذي يخاف كل شيء حتى انقطاع الكهرباء .

دار حوارا بيني وبين عمار وبعض الزملاء استكمالًا لما بدأناهُ بالأمس ، وتطرقنا لمجال عملنا ، والسبب الذي جئنا من أجله وهو الجريمة وطرق مكافحتها وكيفية السيطرة عليها والوصول لاعتراف سريع من قبل مرتكب الجريمة من خلال جمع كافة الخيوط التي تساعد في الوصول لفك اللغز وهو الجريمة ، استمر الحديث لساعات طويلة وأخذنا راحة عدة سويعات قضيناها معًا في استراحة مركز الشرطة الذي كان يعلو المكتب الذي كنا نجلس فيه ، بعدها عدنا مرة أخرى إلى ادراجنا ، وفي غمرة الليل تلقى عمار مكالمة هاتفية من أحد عملائه السريين الذي سمع أصواتا مخيفة من داخل أحد الأنفاق المحفورة بين

غـزة ومـصر .

فخشـى أن تكـون تلـك الأصـوات لبعض مهـربي المخـدرات ، وعـلى الفـور انطلقنـا أنـا وعـمار الـذي أصر عـلى خروجـي معـه إلى مـكان الواقعـة ، لنتيقـن ممـا حـدث في النفـق لنعـرف مصـدر هـذه الأصـوات ، وظـل زملائـي في مركـز الشرطـة يتابعـون الأعـمال الروتينيـة بالقسـم ، ركبنـا سـيارة الشرطـة التـي كان يقودهـا عـمار برعونـة وكنـت أجلـس أنـا بجـواره ، وجلـس خلفنـا أربعـة جنـود ، صـارت السـيارة بنـا لمـدة نصـف سـاعة أو تزيـد ، وخـلال الطريـق لم ينقطـع الحديـث بينـي وبـين عـمار ، وظـل القلـق يصحبنـا بعـد أن ركـب معـي السـيارة عنـوةً ، وراح القلـق يحركـه الخيـال الـذي جمعتـه مـن خـلال أفـلام الرعـب والقتـل فمـرت أفـلام العمـلاء السريـين والجاسوسـية والقتـل والغـدر عـلى ذاكـرتي وكأني في قاعـة سـينمائية أرى فيهـا بعـض مشـاهد الرعـب تباعًـا دون تقطيـع أو إعلانـات ، ورحـت أقـول لنفـسي : لربـما هاجمتنـا إحـدى الفصائـل التـي كانـت عـلى خـلاف حـاد في الفـترة الأخـيرة مـع حكومتـي أو يقتلنـا صاروخًـا مـن دولـة الاحتـلال فيسـقط علينـا بالخطـأ فيدمر كل مـن يقـع عليـه ومـن بينـه نحـن .

وصلنا إلى مبتغانا الذي عرفه عمار ، وقد كان الشرطي السري نجدي في انتظارنا يجلس قريبا من النفق ، وكان النفق في منطقة متوحشة شديدة الظلمة ، وقد هاجمتنا الرياح حتى صمت أذاننا وملأت حبات الرمال أفواهنا ، ترجلنا من السيارة وواصلنا السير على الأقدام قليلا ، لنجد كُتلتين من الرمال على الجانبين بينهما ممر مظلم لم نرى منه حتى بصيص نور .

طلب عمار منا الهدوء حتى نتتبع مصدر الصوت ونتعرف عليه دون أن يصيبنا مكروه ، محذرا كل منا من إفتعال أي حركة كإشعال قدّاحة السجائر أو ضوء الهاتف المحمول ، فسألته : كيف سنرى إذن إن لم يكن معنا نورًا نهتدي به طريقنا ، قال عمار : من الأفضل أن لا يرانا أحد ، فلربما كانوا جنود احتلال أو جنود إحدى الفصائل ، فإن كشفوا أمرنا سنموت جميعًا ، فقلت له : ربنا يطمنك .

انطلقنا جميعا نتتبع مصدر الصوت ونحن لا نرى شيئا فسرنا مسافة مائة متر كانت ظلام في ظلام ، فالنفق يقل فيه الأكسجين والهواء كلما تعمقنا فيه ، ولكن بدى شيئًا غريبًا ،

أنه كلما اقتربنا من مصدر الصوت فاحت رائحة الفل التي ملأت المكان وسيطرت عليه ، والذي ازداد وازداد كلما دنونا من الصوت حتى ظننت أن بداخل النفق شجر من الفل قد زرعَ ، أخيرا وصلنا إلى مصدر الصوت واشهرنا جميعا أسلحتنا تجاههُ بعد أن أطلقنا الأنوار فجأةً ، وكانت الفاجعة التي لم يتوقعها أحد ، فلقد رأينا امرأة من الحسناوات الجميلات عارية تمامًا في أحضان شاب عتي في مقتبل الثلاثينات مجرد هو أيضًا من كل ملابسه ، صُعِق الاثنان من وجودنا المفاجيء ، فلم يفعلوا شيئا إلا الصمت ، فما أن وقعت عيني عليهما حتى خلعت معطفي وسترت للمرأة نهديها العاري تماما وطلبت من الجميع أن ينظروا خلفهم كي يعطوا للمرأة مجالًا تستر نفسها هي ومن معها ، فالله حليم ستار ، سَترَ الاثنان نفسهما ، ثم عُدنا إلى مركز الشرطة مطمئنين عكس ما كنا عليه ونحن ذاهبون ، ففي ذهابنا ظننا أن الموت دنا منا واقترب ، لكنه الأجل الذي لا يعلم وقته إلا الله .

ما أثار دهشتي في طريق عودتنا الرجل الذي ضبطناه عاريًا فلم يكف عن البكاء وظل يكفكف عينيه بقميصه طيلة

الطريق وكان قد جلس واضعًا يديه مكتوفتان وبينهما رأسه التي نامت على رجليه ، وعلى العكس تمامًا بدت المرأة قوية متماسكة وكأنها هي الرجل ، فلم تبدو عليها أي علامة من علامات الخوف أو الرهبة إلا قليل القليل من التوتر ، لكنه لم يؤثر عليها لكي تهتز ، كانت عيناي ترقب الاثنين من خلال فتحة صغيرة بالسيارة تفصل بيننا وبينهم ، ومن خلال المرأة التي تتوسط مقصورة القيادة ، راحت عيناي تروح وتغدو بين الاثنين .

وصلنا مركز الشركة وترجلنا من السيارة إلى أن دخلنا المكتب الذي يمتلك مَفاتِحَهُ عمار الذي أخرجهم من جيب بنطاله المترهل مسارعًا بفتح الباب القديم ، جلسنا أنا وعمار والرجل والمرأة وجهًا لوجه في المكتب ، بعد أن طلب عمار من أفراد قوته أن تستريح خارجًا ثم أوصد الباب علينا ، وبدأ عمار في اشعال سجائره التي أكره رائحتها ، فهي لا تنتهي ، بدأ عمار التدخين بنفسٍ عميقٍ أخرج بعده دخانًا كثيفًا من فمه ملأ الهواء ، وكأنه دخان بارود خرج متطايرًا خلف قذيفة المدفع ، ثم صرخ عمار بصوته العالي مناديًا على أحد عسكره القابعين

خارج المكتب : يا حسين .

- دخل حسين بعد أن طرق الباب مستأذنًا بالدخول : نعم سيدي .
- اثنين شاي لي ولسيدك خالد وبسرعة .
- لبيك سيدي .

لم يتفوه عمار بكلمة وظل يدخن السجارة تلو الأخرى وكان القلق واضحًا على الرجل دون المرأة التي ظلت متماسكة وكأنها لم تكن تعي ما وقع ، دخل حسين بالشاي لي ولعمار ، فقدمت كوب الشاي الذي بيدي للمرأة ، وطلبت منها أن تشرب فشكرتني وأخذت ترتشف منه ببطئ .

كان الشاب الذي عمره ما بين الثلاثين والأربعين وسيمًا أنيقًا أحمر الوجه ذو لحية سوداء خفيفة وعيون زرقاء صافية كلون البحر الصافي الهاديء ، يرتدى بنطالًا من الجنز وقميصًا مربعًا اختلطت فيه الألوان ما بين الأحمر والأزرق ، والمرأة في عمر الثلاثين خريفًا عيونها سوداء واسعة وشعرها أحمر داكن طويل ، عندما تتحرك تهتز أركان جسدها فتهتز أفئدة كل من

يراها متراقصًا مع هزات جسدها اللين الرقيق الذي يتمناه أي رجل في الدنيا الفانية ، فالمرأة تملك مواصفات خاصة جسدية وحركية ، فهي مصقولةٌ العوارض خفيفة الحركة ، فعندما وقعت عيني عليها وهي تترجل من السيارة بدت وكأنها سحابة تمر أمامي لا تسمع لها وسواسًا ولا صوتًا فهي كالنسمة تتحرك ببطيء في رقة وجمال ، فيظن من يراها أنها حُورية من حوريات الجنة نزلت للتو على الأرض لتخطف أنظار وقلب كل من يراها ، ورحت أقول لنفسي : إن كان في الأرض نساء بهذا الجمال والرقة ، فكيف يكون جمال الحور العين في جنان الرحمن ، طلب عمار منهما أن يبدأن بالحديث عن علاقتهما الآثمة ، وكيف بدأت ؟ ومتى ؟

بدأت المرأة المتماسكة بالحديث ، وقالت : أنا بحكي كل شيء ، أنا اسمي وفاء رياض من مواليد 1980 من منطقة الساحل شمال المدينة ومتزوجة من رجل أعمال كبير في البلد ، وأعيش معه بإحدى القصور في أطراف المدينة الجنوبية المواجهة لمصر ، فهز عمار رأسه مستهزئًا البلد كلها رجال أعمال كبار ، كملي يا هانم كملي .

- أنا هنا ليه ؟ أنا عايزه أعرف أنا هنا ليه ؟

- ضحك عمار ضحكة سمجة عبرت عن دمه الذي يحمل نفس الصفة ، وقال لها باستهزاء : عشان كنت بتصلي في غير وقت الصلاة وداه حرام ولا يجوز شرعًا هو داه السبب يا هانم ، ثم صرخ فجأة : أنتِ أكيد بتهزري صح ، أنتِ مش عارفة المصيبة اللي انتي فيها ولا إيه ؟!

- ردت وفاء بصوت اجش : اتركونا لحال سبيلنا ، كافي اللي احنا فيه ، ميبقاش عذاب في الآخرة وكمان عذاب في الدنيا حرام عليكم .

- رد عمار : هو احنا اللي حرام علينا ، أقسم بالله إذا ما اتكلمتي يا أكون عملك فضيحة في كل البلد وأخلي صورك على كل المواقع الوسخة ، اتكلمي وقولي ازاي اتعرفتي على الحيوان داه .

- اهتزت المرأة قليلا ولم تتكلم .

- فقال لها عمار : أنا عارف إنك متوترة ، اهدي خالص ،

ثم ترجل من مكتبه في اتجاه الباب ، ونادى بصوته المزعج على حسين المغلوب على أمره الذي جاوبه بكل أدب : نعم سيدي .

- هات شاي لخالد باشا ، وشوف للاثنين أي شيء يشربوه ، وهات ماء معاك .

- انصرف حسين واحضر ما طلبه منه عمار إلا الشاي لي فلم يحضره ، فنظر حسين إليَ وقال : سكرك إيه يا خالد باشا ، فأجبته : خفيف يا عم حسين .

- طلب عمار من الاثنين الهدوء وأن يحتسيا الشاي والماء ، ثم بدأ التحقيق معهما مرة أخرى بعد استراحة قصيرة سادها الصمت وسيطر عليها صوت شرفات الشاي وشرب السجائر ، بعدها أخذ عمار منهما هاتفيهما النقال وأشار إليَ بالانصراف فقمت ملبيًا طلبه في صمت وتركنا المكتب ، وكان حسين في انتظارنا بالخارج فأمره عمار ألا يدخل عليهما أحد وأن يتركهما وحيدين وانصرفنا .

- ما رأيك يا خالد باشا ، ناكل حاجة تقيلة عشان

السهرة مطولة اليوم مع الاتنين شكلنا هنسمع حكاية كبيرة .

- هناكل ايه في بلدكم دي ؟ أنا معرفش أي حاجة هنا .
- فيه أكلة اسمها المقلوبة هتعجبك جدًا .
- والله مقلوبة معدولة مش هتفرق ، المهم ناكل عشان أنا جعان ، وياريت نشوف الشباب اللي معانا .
- شباب مين يا عمي خالد ، الشباب ضبطوا نفسهم من زماااان ، أنت كنت فاكر أنهم هينتظروك كل الوقت داه من غير أكل ولا شرب ، مستحيل طبعًا .
- أف ، فعلا الوقت أتأخر والكلام أخدنا ، بس إيه الحرمة دي ! طيارة ، زي ما بيقول الكتاب .
- هي فعلا طيارة ملهاش حل ، بس الحلو ما يكمل .

أكلنا المقلوبة في إحدى المطاعم القريبة من القسم وما أن انتهينا حتى عُدنا ادراجنا وفتح عمار المكتب ، ووجدنا الاثنين صامتين تمامًا وكأن الغرفة خالية على عروشها إلا من أثاثها

البالي وجدرانها الرمادية التي لم تزد المكان إلا كآبة وبؤسًا .

- يالله انتِ وهو ... احكوا ... كيف اتعرفتوا على بعض ؟ وإيه قصتكم ؟
- بدأت وفاء بالكلام ، أنا اسمي وفاء .
- الضابط عمار : عارفين يا ست الحسن ، ما أنتِ قلتي قبل شوية إن اسمك وفاء ، ومن هنا مش جاية مهاجرة من دولة أوروبية . . إيه حكايتك من بدايتها لنهايتها ، فتكلمي بالتفصيل لأني عايز أعرف كل حاجة الكبيرة قبل الصغيرة .

أنا من شمال المدينة بيت أبي في منطقة الصيادين ، كان أبي يعمل صيادًا وكان رقيق الحال مثله مثل باقي الناس هنا في المدينة ، والحمد لله لم نحتاج أي شيء فكان أبي يوفر لنا كل احتياجتنا من مأكل وملبس ، مرت الأيام وتزوجت من رجل أعمال كبير تعرفت عليه بالصدفة البحتة عندما جاءنا مريضا ذات يوم ، ففي إحدى ليالي شهر ديسمبر القارصة دخل أبي علينا وبين يديه رجل بدت عليه علامات الإعياء الشديد من

آثار البرد القارص ، فعندما تراه تشعر أنه سيموت عما قريب ، فهو أقرب للموت من الحياة .

دخل أبي وكان يحمله مع اثنين من الصيادين ثم وضعوه على السرير ، وطلب أبي منا أغطية وماء ساخن وشربة خضروات دافئة ، وبينما نحن نعد له ما طلب ، ظل الرجل يرتجف ويرتجف مدة طويلة فقد لازمته رغم أننا لحفناه بجبل من الأغطية التي لم تغني عن برودة جسده ، وبينما الرجل نائم قص علينا أبي قصته فقد حاصرته الأمواج العاتيه في يخته ولم يستطع الحركة وظل يصارع كي يبقى حيًا ، فحمله أبي ومن معه من الصيادين في سفينة الصيد وحملوه إلى أن جاؤ به إلى بيتنا .

بعد نوم عميق فاق الرجل من غيبوبته عندما ارتفعت درجة حرارة جسده بفعل الماء والنار الذي أوقدناه حوله ، نام الجميع إلا أنا فقد بقيت بجواره أشعل النار من حوله وأغطي قدمه اذ خرجت من تحت الغطاء ، فقد كنت قلقة عليه ليس من الموت فقط بل خشيت أن يهلك ونحن معه ، فنحن لا نعرف شيئا عنه ، وتلك مصيبة أخرى قد تحل علينا وتجلس

بجوار المصيبات الأخريات التي تلازمنا منذ أمد بعيد .

عندما فاق قليلًا أعددت له شربة الخضروات وأمسكت فمه بيدي اليسرى وأمسكت المعلقة بيدي اليمنى ورحت أفرغ المعالق المحملة بالشوربه الساخنة في فمه الواحدة تلو الأخرى لعدم قدرته على الحركة ، فلقد ظل الرجل ساكنًا لا يتحرك مستسلمًا لمعالقي الساخنة ، ولم يعبر بشيء سوى ابتسامة مجهدة عبر شفتيه الزرقاء الهزيلة التي كانت تتحرك بصعوبة ، إلا أَن عينيه المكسورتان بسبب التعب لم تغفل عن النظر إليَ طوال الوقت ، تقدم لي الشكر العميق عما فعلته ، ظل الرجل يخفض ويرفع جفونه مرات ومرات ما بين الغفوة والصحيان إلى أن حل الصباح علينا ، وسيطرت الشمس على أرجاء المكان بأشعتها الذهبية ، مكث الرجل بضعة أيام توطدت خلالها العلاقة بينه وبين أسرتي وبيني ، ثم رحل بعد أن شفاه الله مما كان عليه ، ثم قدّم الشكر لأبي ولنا على استضافته وإنقاذه حياته ، ولم تمر الأيام كثيرا حتى عاد إلينا ثانية حاملًا المتاع من الهدايا والطعام والشراب ، وكأن الخير كله حل بدارنا التي نضب منها الطعام .

جلس الرجل قليلًا ثم همَ بالرحيل واضعاَ يدهُ اليمنى في جيبه وأخرج حزمة كبيرة من المال لا حصر لها ، وترجى أبي أن يقبلها ، إلا أن أبي أبى قبول ماله ، وقال له : اتدفع لنا أجر انقاذنا لك ، دع مالك في جيبك ، فما فعلنا ذلك إلا لوجه الله ، فنحن لسنا من هؤلاء الذين قصدت ، لقد اخترت العنوان الخطأ .

اعتذر الرجل وكان في غاية الحرج ، وغفر له أبي زلته ، فتوطدت العلاقة بيننا وبينه أكثر وأكثر عبر الأيام ، وتعددت زيارته لنا إلى أن طلبني للزواج ، وتلك الخطوة كانت صادمة للجميع فلم يخطر ببال أحد أن يطلب هذا الرجل الثري يد بنت الرجل الفقير ، فأنا فقيرة ولا أملك من حطام الدنيا شيئا سوى العفة والشرف .

أقام لي زوجي فرحا أسطوريا بكل ما تحويه الكلمة من معان فكان أعجوبة من عجائب الدنيا التي لم ترَ المدينة مثلها من قبل ، وقد تم الزفاف في ليلة جميلة من ألف ليلة وليلة بعدها غادرنا المدينة إلى إحدى الدول الأوروبية التي سمعت عنها ولم أراها من قبل لنحتفل بزواجنا ونقضي شهر العسل

هناك إلى أن فوجئت بالطامة الكبرى ، وهي أن زواجنا حبرٌ على ورق ، فهو زواجٌ مع إيقاف التنفيذ ، صعقت وحزنت في باديء الأمر ، ولكن ما رأيته منه من لطف ورقة خلال زياراتي لأوروبا التي كانت لي بمثابة الجنة التي وضعها الله على أرضه ، فكانت السويد أولى محطات سفرياتي الخارجية مع زوجي ، فرأيت خلالها بيوتًا صغيرة ذات ألوان حمراء زاهية وألوان بنية تحوطها حدائق ذات أسوار خشبية صغيرة متناسقة مع تلك البيوت .

فالأسوار تظهر ما تخفيه الحديقة من جمال وعذوبة دون خجل ، وكأن البيوت صنعت من قالب واحد ، فهي تتناغم في تناسق رهيب وسط روضة خضراء تهفهف إليها القلوب التي تراها ، ومن أمام هذه البيوت يمشي جدول ماء في خفة وهدوء ، فالجدول كلون السماء حتى أن الأمر قد اختلط علينا عندما رأيناه ظنًا منا أن السماء موصولة بالأرض من خلال جدول الماء ، وزينت السماء المكان ببعض الغيوم لتشكل مع الجدول والبيوت لوحة فنية تسحر كل من يراها لجمالها .

فلأول مرة في حياتي وحتى في خيالي أرى ما لم أكن أتوقع

أن أره ، وكأني كنت في حلم جميل أخشى أن استيقظ منه قبل أن امتع عيني ، فهذه الأماكن والألوان في الحقول بديعة حقا ، فقد اصفرت واحمرت واخضرت وتزينت بكل ألوان الطبيعة ، فرأينا عبر الطرق المتعرجة التي صنعها أهل الريف بغية السير عليها حفاظا على ما زرعوا في الأرض فزاد الطريق الأرض المزروعة جمالًا على جمالها ، وعندما مشينا لم تتركنا الروائح العطرة التي فاحت وانتشرت في كل مكان ، فكلما دنونا منها أو بعدنا أو حتى توقفنا تصحبنا ولا تتركنا .

بعد قضاء شهرنا الجميل عُدنا أدراجنا من حيث أتينا حيث قصر زوجي الأنيق في أطراف المدينة ، فمكان القصر مختارٌ بعناية فائقة ، وكيف لا يختار بعنايه ؟ فكل شيء متوفر لخروج القصر في أبهى صورة وبالشكل الذي ينبغي أن يكون عليه كقصور العظماء والأمراء ، فقصرنا واسع فسيح وجدرانه بُنيت على التراث الأندلسي الذي يخطف القلوب قبل الأنظار لجمال عمارته وروعة ألوانه ، ، ومما زاد القصر جمالًا على جماله احتضانه للبحر الأبيض ذو الأمواج العالية التى تطاردك بصحبة الهواء العليل إذا نظرت .

فشرفته فسيحةً تواجه مياه البحر وتقف أمامه وجها لوجه دون حاجز أو عازل ، وكأنهما عاشقان يحتضنان بعضهما البعض ، فإذا جلست بالشرفة المواجهة للبحر سيصيبك رزاز مائهِ بلطفٍ وكأنه يداعبك في خجل ، فإذا الشمس أشرقت أسقطت أشعتها على ماء البحر فتحوله للون الذهب بعدما تنشر أشعتها على سطح الماء فتنصب خيوطها الذهبية في كل مكان ، هكذا كان قصرنا جميل يبعث في النفس الراحة والسرور ، إلا أنني لم أكن سعيدة بسب حرماني من لذة الحياة التي زادت آلامها يومًا بعد يوم فمزقت أوصالي قطعة قطعة بلا رأفة أو رحمة .

هنا تدخلت في الحديث بعد أن سكتت المرأة عندما ذَرفت الدموع من جفونها وقد سالت على وجهها كأنه مجرى ماء تدفقت مياهه منحدرة إلى أسفل نحو فمها الذي أُغلق في وجه الماء المنهمر ، حينها رق قلبي الضعيف وطلبت منها أن تستريح وتكف عن الكلام والبكاء وحملت لها كوبًا من الماء وطلبت منها أن تشرب ، وطلبت من حسين في أدب واحترام أن يجلب لنا القهوة وسكت حتى نطق عمار وطلب من الشاب أن يتكلم عن نفسه ، قائلًا له : اتفضل يا سعادة البيه قل لي . . كيف عرفت الهانم ؟ ولكن الفتى صمت ولم يتكلم ، فصرخ عمار في

وجهه وقال له : انطق يا زلمة (رجل) ؟

جاوبه الشاب في ارتباك : أنا اسمي هشام سعد عندي 30 سنة ، بشتغل رئيس عمال في شركة التحرير التي تحفر الأنفاق بينا وبين الشقيقة الكبرى مصر ، لنساعد الناس على تمرير احتياجات القطاع من مصر بسبب الحصار الذي فرضه الاحتلال ، أنا بعمل عند جوز الست وفاء ، وصار لي سنوات على هذا الحال ، فكنت بحكم عملي أتردد على قصرها وبصفة مستمرة .

- قاطعه عمار الثقيل بسؤاله المستفز ... كيف نمت معها وتقول لها سيدتي ؟ أنت عبد عندها يا زلمة (رجل) ؟
- أنا أحترم الست وفاء وأقدرها وهي تاج فوق راسي .
- أكمل يا محترم وقلنا ، كيف اتعرفت على وفاء ،آسفين أقصد ستك وفاء ؟

تعرفت على ستي وفاء صدفة في قصرها عندما كنت أقابل زوجها لارتباطي بالعمل معه ، فرأيتها منذ عدة شهور صدفة في شرفة القصر الذي ولجت فيه بعد أن أُذن لي بالدخول عبر

هاتفه المحمول ، وعندما رأيتها لأول مرة لم أصدق أنها امرأة ، فقد ظننت في باديء الأمر أنها جنية وليست انسية ، فذات مرة ذهبت للقصر لمقابلة زوج سيدتي وفاء ، وقد عنفني بسبب العمل المتأخر في إحدى الأنفاق ، فبررت له التأخير لندرة العمال الذين لا يجبذون العمل لخطورة العمل فيها في الأنفاق ، وسألني وقتها عن بئر لأحد الشركات وكان منفعلًا جدا .

فسألني عن نسبة الحفر في النفق الخاص بشركتنا ، فجاوبته أن ما أنجزناه هو 60 ٪ ، فاستشاط الرجل غضبًا وعنفني بقوة مستغربًا عدم وجود عمال في مدينة تسيطر عليها البطالة ، وأثناء حوارنا هبطت علينا الست وفاء من السماء من حيث لا أدري ، وكنت أقف في الشرفة أمام سيدي الذي كان يجلس على كرسيهِ العاجي فعادت الشمس لتشرق من جديد ففي هذا اليوم أشرقت مرتين الأولى صباحًا والثانية عندما هلت علينا الست وفاء بنورها الذي ملأ المكان بعد أن انتشر في جميع جنباته الفسيحة ، فما أن حلت علينا حتى أصيب فؤادي واضطرب بعد أن رقص ابتهاجًا وفرحًا بما رأى ، فقلت

في نفسي حاش لله : حاشا لله ما هذه من البشر ، ألقت سيدتي وفاء السلام علينا فرد فؤادي السلام قبل لساني ، ثم طلبت من زوجها أن يتناول معها الفطور والشاي ، فاستشعرت الحرج وطلبت الإذن بالرحيل فأذن لي سيدي الذي تحدث كثيرا لكني لم أعي ماذا قال ، ففي تلك اللحظات كان عقلي مشغولا عن الواقع بعد أن تشبثت عيني بعينها فلم أفق من غيبوبتي إلا بعد أن ردد سيدي هشام هشام ما بك يا هشام أين أنت ؟ أين ذهبت ؟ وقتها عُدت مرة أخرى إلى واقعي ، وهرولت من المكان هربًا كي لا يحدث مالا يحمد عقباه إذا رأى سيدي شيئًا لا يروق له .

- قاطعت وفاء هشام وقالت : أنا من أردته لي ، فكيف أعيش محرومة وزوجي رجل مع إيقاف التنفيذ ، بالله عليكم هل واحدة مثلي تُترك هكذا دون أن تنال حقوقها ، أهذا عدلًا ؟ !
- فقلت لها : لا والله ، ليس هذا عدلا ، حتى أن هذا حرام ولا يرضي الله كيف تتركي دون رجل ، فلو رأى الأموات وجهكي لقامت قيامته وعاد من جديد إلى الحياة ظنًا

منه أنه في الجنان مع الحور العين ، فتبسمت ، فوكزني عمار بعدما نسيت أين أنا وماذا أفعل من شدة جمال المرأة .

أكلمت وفاء المبتسمة حديثها : أنا من التقطته بعيوني طمعًا فيه وفي إشباع غريزتي التي كادت أن تموت عطشا وشوقًا لما حلله الله وحرمه زوجي عليَ ، فالحرمان الذي طال لن يعوضه مال ، فلقد عقدت النية وأقسمت بأن أوقعه في شباكي مهما كان الثمن ، فرحت أبحث عن الطريقة التي أوقعها به في شباكي دون أن أبدي رغبتي فيه ، ففكرت مثلما تفكر النساء دومًا فرحت أهمل نظراته التي لم أبدي لها أي اهتمام رغم النار التي استعرت بداخلي ، فمرت الأيام على هذا المنوال وتكررت الزيارات من قبل هشام لنا ، وكنت في كل مرة أنتظره وكلي شوقٌ لرؤياه ، طمعًا في تحقيق شيء ملموس على أرض الواقع يتعدى حدود النظرات ، فرحت أُهيء الفرص وأعدها منتظرة الوقت المناسب لأمسك به ، فلقد أقسمت ألا أتركه يفلت من يدي إن حانت لي الفرصة ذات يوم ، فهذا ما عاهدت نفسي عليه ، اتصل هشام ذات يوم على هاتفه النقال فظهر اسمه فسارعت

بالرد عليه متظاهرة بعدم ازعاج زوجي الذي كان نائمًا ، ورغبة مني في الوصال لتحقيق غايتي التي طال انتظارها ، ودار بيننا حديثٌ قصير امتد لبضع ثواني .

دونت موعده الذي يأتي فيه لمقابلة زوجي وأعددت له العدة وانتظرته بلهفةٍ وشوق بعد أن تعطرت وتزينت ولبست أفضل الثياب وأجملها ، فقد وضعتُ الكحل على عيني حتى يراها متسعة رغم اتساعها ، وكسوت جفوني بالون القرمزي حتى ملىء ما بين رموشي وعيني ، وفضلت ارتداء بنطالًا أزرقًا كنتُ لبسته بالكاد لضيقهِ ، وكأنه حشر ببعض الماء والصابون كي أدخل فيه ساقي ، وارتديت أعلى البنطال قميصًا من الحرير لونه كلون السماء الصافية المرصعة بالنجوم بعد أن وضعت بعض الأساور بيدي وقرطًا أزرقًا حول عنقي ، فصرت ملكة فرعونية خرجت للتو في أبهى صورها ، عندما رأني خفق قلبه وازدادت ضرباته ولاحظت ذلك من بعد أن تلون وجهه بالأحمر والأصفر ، فاهتزت أركانه وظل جسده يرتجف ، حتى كاد يخر ساجدًا على الأرض في لحظة لم يسيطر فيها على نفسه من تأثير رؤياي .

دخل هشام القصر ، ولم يكن زوجي مستيقظًا فرحبت به ، ثم سألته عن رقم الهاتف الذي اتصل منه لكي أتأكد إن كان الرقم له أو لغيره ، فأكد لي أنه الرقم رقمه ، فقلت له : انتبه عليك أن تنتبه لهاتفك في المرات القادمة ، لربما تأتيك فرصة لن تحلم بها يومًا ، اندهش هشام مما أفضت به وظهرت الحيرة على وجهه مرة أخرى ، فلربما كان يفكر في الفارق الذي بينه وبيني .

غمر الظلام المدينة ونام كل من فيها إلا من بعض سكانها الذين أجبرتهم طبيعة الحياة على السهر الطويل والعمل في ظلمات الليل وهشام مثله مثل باقي أهل المدينة ، فطاردته ففي خياله أولا فجعلته يستغرق في بحر الخيال ثم في الواقع ثانية ، فأقسمت ألا أترك فكره وعقله حتى أسيطر عليه تمامًا ، فلم أدعه يمكث طويلًا في نومه حتى أيقظته برنين هاتفي الذي يظهر رقمًا مميزا غير مألوف لدى العامة من الناس ، فمن يحمل ذالك الرقم بالتأكيد شخصًا مميزًا أو شخصية مرموقة في المدينة حتى جاوبني وكان التردد يسيطر عليه ، إلا أنه لن يستطيع رفض مكالمتي ربما لفضوله أو لما يحمله الرقم من ميزه ، وكان الحوار طويلا

بيني وبينه ، فسألته إن كان نائما أو يطوف بالأسهار .

جاوبني أنه لم ينم وتحت طوعي في أي وقت كان ليلا أو نهارا ، فأخبرته بأني مختنقة وأريد بعض الوقت للتحدث معه فجاوبني أنا تحت أمرك سيدتي فبدى وكأنه فهم ما أريد دون أن يفصح عنه ، فطلبت منه أن يناديني وفاء دون سيدتي لكنه آبى أن يقولها حتى يومنا هذا ، رغم أني بينت له أننا أبناء آدم وحواء ومن طينة واحدة هي الصلصال ، وأشرت إليه أني فقيرة ومن أسرة معدمة وليس كما يظن أني من عِلية القوم ، من هنا بدأت العلاقة تتعمق من كثرة السؤال والاتصال ، حتى زال ما كان بيننا من جدار ليصبح كل شيء بلا حواجز .

فقلت له ذات يوم : لن أعيش دونك قط ، إما أنا وأنت ، وإلا فلا معنى للحياة عندي ، فالموت أولى بي منها ، فتعالى نتمتع سويًا بقدر ما بيننا من شوق وحرمان وحب وحنان ، لم يرفض ولكنه خاف بطش زوجي فقال لي : أخشى ما أخشاه أن يكشف زوجك ما بيننا إذا افتضح أمرنا ، فتسقط الدنيا علينا ويكون مصيرنا الهلاك الذي يسبقه عذاب وانتقام ، لكني شددت من أزره وهدأت من روعه ، ورحت أقول له : مالك ومال بشار

فهو عاطل باطل ، ولا فائدة منه مرجوة ولا قوة لديه مكتومة ، فكيف يفتح فاه وينطق بما يخشاه ، ومرت الأيام وفي يومٍ اشتدت فيه حرارة الشوق بيننا ، وجه لي هشام سؤالا يستفسر فيه عن الزمان والمكان ، معربًا عن خوفه من أي مكان نلتقي فيه خشيةً من نفوذ زوجي فلزوجي عيون ترى وأذانٌ تسمع في كل زقاق ومكان ، فزوجي كالجان في كل مكان .

وسألته إن كان قد شُل تفكيره ، فليس من المستحيل أن يسيطر زوجي على المدينة كلها ، ففي جعبتي الكثير من الأماكن التي لا يعرف طريقها حتى ابليس ، فاقترحت عليه أن نلتقي داخل أحد الأنفاق ، فبعد أن ينتهي العمال من أشغالهم يكون النفق خاليا تمامًا من كل شيء ، فلن يجرأ أحد أن يدخله ليلا إلا هشام الذي يحفظ كل أركانه وجنباته ، فبالليل لن نسمع همسًا ولا صوتًا داخل النفق ، ففيه نلتقي على راحتنا ونمتع أنفسنا بما نحب ونهوى ، ففرح هشام بفكرتي وسألني عما سأقوله لزوجي وقت خروجي لملاقاته ، لكني طلبت منه أن يدع الأمر لي ولا يخشى أحدا على هذه الأرض ، حسمنا كل شيء ولم يتبقى لنا سوى تحديد الزمان والمكان دون لفت الأنظار

وهذا ما انتظرناه منذ زمان .

جمعتنا الساعة الثامنة ليلًا بعد أن حل الظلام كأول لقاء بيننا تحت رعاية الشيطان فدنى مني ودنوت منه ، ومارسنا الحرام تحت سقف الرحمن دون خوف من إنس أو شيطان ، فوفتها لم أتمالك نفسي وأنا أصرخ فملئت المكان ضجيجًا وصخبًا ، لكن أحدًا لم يسمعني فالمكان بعيد ومخيف حتى الخفافيش تخشاه ، واستمر اللقاء بيننا لساعتين كاملتين دون ازعاج من كائن من كان ، فلقد غلفه الله بالستر ، وبعد أن انتهينا وصلت لقصري وارتحت على سريري ، ورحت أسبح بخيالي وأنا أستعيد شريط ما حدث أثناء لقاءنا سويًا ، فأخذت أقضب شفتي تارة ، وأحتضن الوسادة تارة أخرى ، وظللت هكذا غارقة في بحر اللذات والشهوات مخططةً لباقي اللقاءات التي لم تدم طويلا ، فالحظ العسر هو الذي أوقعنا في أيديكم ، فقد جئتم وقبضتم علينا وهذه كل حكايتنا من أول ما بدأت إلى ما نحن عليه الآن . .

كان عمار يجلس متأكدا على كرسيه الهزيل وكرشه يكاد يفتك بأزر القميص الذي هرب من أسفل الرداء المصنوع من

الصوف فخرج للنور بعد أن كان مختبئًا بعد أن انفجر بعدما زاد عليه الضغط من الكرش المنتفخ ، سأل عمار وفاء عن اسم زوجها فأجابته وفاء في كبرياء ، زوجي هو شوكت بيه .

- نهض عمار من على كرسيه البالي بعد شفط كرشه ، انكمش وجهه وجحظت عينيه التي كادت تخرج من جفونه وقال لها : شوكت بيه حافظ اللي هو ... .
- نعم إنه هو ، من تقصد .
- فقال عمار : يخرب بيتكم على بيت اليوم اللي شفتكم فيه ، ليه ما خبرتيني من أول ما جيتي هنا ؟ اطلعي من هنا بسرعة ، أنا لا شفتك ولا شفتيني ولا أعرفك ولا تعرفيني ، وأنا مشفتش حاجة ولا أعرف حاجة خالص ، اتوكلي على الله .

بالطبع أنا صعقت مما طرأ على وجه عمار ، واستغربت أكثر وأكثر من فعلته الغير مبررة والغير مفهومة ، ولكنني آثرت الصمت على نفسي بعد أن ترجاني عمار أن أصمت وألا أبوح بكلمة عما دار ، لأن في المدينة أسرار لا أعرفها ، كوني

غريب عنها وعن أهلها .

ذهبت لأخلد في مضجعي المتواضع بعد يوم طويل من النصب والإرهاق ، فنمت على سريري المتواضع وتشبثت عيني بسقف الغرفة ذو اللون الأبيض الذي عشعشت فيها العناكب وحولته لسهول سوداء أخفت لونه الأصلي ، ورغم كثافة خيوط العناكب المنتشرة بسقف الغرفة ، إلا أن خيالي اخترقها بسهولة وهو يبحث عن سبب لما حدث ، فسيطرت عليَ الحيرة والدهشة من تصرف عمار مع المرأة الجميلة الثرية التي خانت زوجها ،ورحت أسأل نفسي إن كان لها العذر في ذلك ؟ أم تستحق التنكيل والقتل والعقاب جراء فعلتها ؟ أسئلة كثيرة وردت على ذهني الذي لم يتوقف عن التفكير في تلك الليلة الطويلة ، فهل الحرمان وحاجتها لإشباع غريزتها سبب كاف ومقنع لخيانتها ؟ ولو كان هذا عذر إلا أنه غير مقبول ، أم هناك أسبابا أخرى لا أعلمها ؟ فلقد رأيت الكثير من النساء اللاتي يعانين من الفقر الموجع ، لكنهن لا يفكرن ولو لمرة في بيع شرفهن ولو بكنوز الدنيا ، وليست الفقيرات فقط بل هناك صغار الأرامل اللاتي تُركن في أصعب المراحل

من أعمارهن وفي قمة التوهج الجنسي ، لكنهن لم يفكرن في الحرام ولو لمرة ، وهل يكون مرض الزوج وعجزه الجنسي دافعًا لخيانة الزوجة لزوجها ؟

كل هذا قد يكون جائزا ولكن الدهشة الكبرى هي موقف عمار الثقيل النفس والبدن الذي خاف وارتعد عندما سمع اسم زوجها ، فيا ترى من يكون هذا الزوج الذي يخشاه الجميع بما فيهم المتهور عمار الذي يتفنن في إرهاق الناس بالمتاعب ولا يخشى منهم أحدا ، أسئلة كثيرة دارت في ذهني ، ولم تتوقف حتى مطلع الفجر الذي تغلب فيه الشيطان عليَّ كعادته ، وغلبني بالنعاس تاركًا صلاة الفجر كعادتي السيئة ولم أقم لأدائها في وقتها .

استيقظت صباحًا على صوت الباب وهو يقرع بيد حسين العريضة الثقيلة ، فما أتعجب منه هو الصفات المشتركة التي تجمع ما بين طائفة المخبرين ومساعدي الضباط في شتى بقاع الأرض ، فلقد كان حسين مريضًا بالصحة والعافية ، وهذا ما ظهر جليا على ملامح وجهه الذي اكتظ بالشحوم حتى كون طبقات من الجلد السميك تعلو بعضها بعضا ، فبدت وكأنها

أمواج بحر تبدلت ألوان مائه من الأزرق إلى الأسود ، وكان لحسين شاربًا ذو طرفين ممتدين كعارضة طويلة تمتد من اليمين لليسار تستخدمها العصافير المرهقة كاستراحة في وسط طريقها وقت الشعور بالتعب ، ويعلو تلك العارضة أي اشارب أنف عريضة غليظة لها مدخلين ككهفين في حضن الجبل ويعلو الكهفين عينان بنيتان داكنتان واسعتان ، إذا حدقت فيهما النظر سيسيطر عليك الرعب والخوف لا محالة .

هذا الوجه المخيف لا يختلف في وصفه عن باقي الجسد الذي خرج منه ذراعان طويلان مكتظان ، وفي نهاية كل ذراع كف غليظ مدبب به بعض التعاريج التي امتدت من أعلى الكف لأسفله ويقطع تعاريج أصابع كفيه خاتم فضي ذو رأس أسود مدبب في وسط إصبعه البنصر في الكف الأيسر ، ويتدرج الجسد من الانخفاض من منطقة الرأس إلى الارتفاع رويدا رويدا حتى يصل لقمة ارتفاعهِ في منطقة البطن وكأنه منحدر جبلي يأخذك من أعلى قمة المنحدر ويسقط بك لأسفل .

كاد حسين أن يحطم الباب تحطيمًا ، بسبب طرقاتهِ القوية بيده التي لا يتحملها باب الغرفة البالي ، فجعلت الغرفة تهتز ،

وكأن زلزالًا عنيفًا قد ضربها بقوة 7 درجات بمقياس ريختر فحرك كل أركانها ، قمت مرتجفًا وتذكرت الكباست التي يقوم بها رجال الشرطة على احدى بيوت الدعارة ، فدعوت على حسين بخراب بيته وبيته أبيه وأمه بسبب ازعاجه لي ، فلم أنال قسطا جيدا من الراحة والنوم بسبب التفكير العميق الذي سيطر عليَّ ليلة أمس وبسبب طرق حسين للباب بعنف .

- صباح الخير يا خالد باشا
- صباح الخير يا عمي حسين
- الفطور جاهز لسيادتك وسيدي عمار في انتظارك تحت .
- حاضر أنا جاهز ، هاخد دش سريع وأنزل .

انطلقت في اتجاه مكتب عمار وجلست معه حتى تناولنا الفطور سويًا ، فلقد شكلنا فريقا واحدا أنا وهو بعد انصراف باقي الزملاء كل في مجال اختصاصه ، جلس عمار أمام المكتب الذي حمل فوقه مائدة مستديرة من الطعام تحتوي على طبق من الفول والحمص الغارق في زيت الزيتون والمتبل وتلك بعض الأكلات المعروفة في تلك المدينة ، فانتهيت من فطوري وكان

كل ما يشغل بالي هو زوج المرأة الذي أرعب ذكر اسمه عمار ، وكاد يبول على نفسه من شدة الخوف عند سماعه للاسم .

- عمار ، من هو زوج المرأة الذي كاد أن يقتلك رعبًا وخوفًا بالأمس ؟
- يخرب بيتك يا خالد . . اسكت الله يخليك ، لربما يسمعنا أحد فتحل الكارثة بي وبك ونهلك حصاد ألسنتنا .
- ما رأيك أن نخرج في جولة على الحدود ، وهناك قد أقص عليك بعض الأسرار الخطيرة عن هذا الرجل .
- إذًا هيا بنا ، الآن .

صعدنا أنا وهو إلى سيارة الشرطة التي تقف أمام المركز ولسان حالها يقول : الله يحرقكم بجاز يا ولاد التيت ، أنا قرفت منكم ومن أشكالكم ، أنا كبرت وعجزت وعايزه أستريح ، ارحموني لوجه الله يا كفرة ، انطلقنا بالسيارة بعد أن ضغط عمار على دواسة البنزين وكأنه يضغط في فأرٍ هم بالهروب فضغط عليه ضغطًا بقوة بلا رحمة ، حتى أن دخان السيارة

الكثيف كاد أن يصيبنا بالإختناق جراء فعلته بالسيارة العجوز ، وما أن وصلنا للمنطقة الحدودية القريبة من موطني حتى التفتَ عمار يمينًا ويسارًا وعلامات القلق تبدو واضحةً على وجهه المنتفخ .

- اسمع يا عمي خالد ، الكلام داه لو طلع منك لأي حد تاني ، أقسم بربي هقتلك بلا رحمة ، لأني حينها ستكون حكمت علينا بالموت سويًا .
- عيب عليك يا عمار ، أنا رجل ولست طفلا صغير يبوح بأسرار الناس .

كده يبقى اتفقنا يا صاحبي ، زوج الهانم اللي جات المخفر أمس من أكبر الشخصيات في المدينة وأكثرها نفوذًا ، وله دائرة اتصالات واسعة في كل مكان في الشرطة والجيش والسلطة ، وله سيط كبير في وسط التجار ليس بالمدينة فقط بل في أغلب بلدان العالم ، ولو سألت عليه التجار الكبار في بلدك ، سوف يخبروك من يكون هذا الرجل .

إنه رجل المخابرات السابق وزعيم إحدى حركات المقاومة

التي يهتز لها عرش المحتل وتصيبه بالفزع ليل نهار ، إذا تحرك هذا الرجل تحركت خلفه آلاف العيون التي تحرسه وتكشف له الطرق التي يسير عليها ، كل شيء في مدينتنا يعرفه جيدا ، ولهُ أذانٌ وعيونٌ في كل زقاق من أزقة المدينة حتى أني أخشى أنه يسمعنا الآن ، فالكل يخشاه الكبير والصغير ، لأنك لو حاولت اللعب معه سيكون الموت أرحم وأقصر الطرق لك ناهيك عن الذي سيصاب به أهلك .

هو من أكبر التجار هنا وأكثر الرجال نفوذا وقوة وجبروتًا وفتك بمن يفكر أن يعبث معه ، ولو فكرت مجرد تفكير أن أخبره عما حدث بالأمس لسارع بقتلي بلا رحمة ، حتى لا أفشي ما حدث لأحد ، ويأليت الأمر يقتصر على قتلي فقط بل يمكن أن يمتد ليشمل كل عائلتي الكبار والصغار فهو يبطش بلا رحمة أو خوف من أحد ، فلا يستطيع أحدًا أن يحاسبه حتى أن المحتل لم يجرؤ على قتله خشية الزلزال الذي قد يحدثه جراء قتله لعلاقاته الوثيقة التي تصل لرؤساء حكومات الدول في بعض الأحيان ، هل أدركت الآن سبب صمتي وخوفي ؟ إياك يا خالد أن تبوح بما دار بيني وبينك لأحد ! ، فالموت سيكون

مصيرنا أنا وأنت ، هل تعي وتدرك خطورة ما أقوله لك يا خالد .

- لا تخف يا صديقي ، فسرك الآن في بئر عميق لا يستطيع أحدا الوصول إليه .

مرت الأيام ونحن نمارس عملنا الروتيني الذي تبادلنا فيه المعلومات التي اكتسبناها من خلال العمل والدورات التدريبية ونصائح القادة ورؤساء العمل ، وبعد مرور أسبوع بالكمال والتمام استيقظت المدينة المحاصرة على خبر مفجع وهو انهيار أحد الأنفاق على من فيها ، فانطلقنا على الفور لمكان الحادث بعد أن تلقينا عدة اتصالات من المواطنين بوقوع الكارثة ، وكانت الفاجعة وفاء وهشام جثين عارتين أسفل الحطام ، فاكتشف السر الذي أخفيناه أنا وعمار عن أهل المدينة ، ليكشفه الرحمن أمام الجميع دون أن يتحمل أحدا مسئولية ما حدث إلا القتيلين .

ماتت وفاء وهشام عرايا ، فالخبر انتشر في أرجاء المدينة

بسرعة البرق فلم يستطع أحدا أن يعترضه أو يوقفه ، لأن الذي حركه قادر على كل شيء وليس كمثله شيء في الأرض ولا في السماء ، ماتت وفاء التي بحثت عن الحرام وخطت خطواته خطوة خطوة حتى وقعت فيه ، ولم تبحث عنه من خلال الطرق التي أحلها الله ، بل اختارت الحرام طريقًا ، فهوت في مستنقع الرزيلة بعد أن سيطر عليها الخناس بالوسواس ، ورغم أنها خشيت أن تترك المال والوجاهه المتمثل في زوجها ، خشية السقوط مرة أخرى في دائرة الفقر فتعود كما أتت ، لأن الفقر كالقبر لا ملاذ ولا مفر منه ، فقد اختارت وفاء ومعها الشيطان الطريق الخطأ ، رغبةً منها في تحقيق المعادلة الصعبة وهي الظفر بالاثنين المال والمتعة ، فتملك المال وفي ذات الوقت تحقق رغبتها في اشباع غريزتها بالحرام ، فكان ربك لها بالمرصاد .

لم أتألم كثيرا لموت وفاء وهشام أكثر ما تألمت على حال زوجها البائس المسكين الذي لم يقترف الزوج ذنبًا قط ، ولم تكن له يد في تلك الفضيحة التي وقعت وهزت أركان المدينة سوى أنه كان زوجًا لهذه الخائنة ، فلم ينفعه سلطانه ولا ماله ولا وجاهته في القدرة على حفظ عرضه ، رغم عيونه ومسامعه التي ملأت أركان المدينة المحاصرة ، كان الله في عونه وعون من

ابتلاه الله بزوجة مثل وفاء لا تخشى الله ولا تحفظ عِرضها ، فيجرها الشيطان لتقع في دائرة الخيانة تحت سمع وبصر من لا يغفل ولا ينام ، هنا وقفت متعجبًا على قدرة العادل في توزيع الأرزاق على الناس ، فقد أعطى الله لكل عبدٍ من عباده نعمه كبيرة تميزه عن غيره من باقي خلق الله ، فمن يملك الصحة لا يملك المال ، ومن يملك المال لا يملك حب الناس ، ومن يملك حب الناس لا يملك المال ، وهكذا كان لربك تبارك وتعالى في خلقه شئون ، فمن حافظ عليها وشكر ربه استمرت ، وإن غفلها ضاعت وفقدت فسبحانه يخلق ما يشاء ويختار وهو على كل شيء قدير .

هنا انتهت القصة الثانية ومثل كل مرة شعرت بالإرهاق رغم احتسائي للقهوة لأكثر من مرة رغم أنف الطبيب ، فطلبت من الطبيب الإذن بالرحيل فأذن لي ، بعد أن أعطاني بعض الحبوب المهدئة للأعصاب والتي ساعدتني كثيرا في المحافظة على هدوئي والنوم بارتياح .

الجلسة الثالثة

محفوظ وهدى

كما هو الحال في كل مرة ، دخلت على طبيبي النفساني الذي ذهبت إليه ملامةً وارضاءً لأخي أحمد ، ووقتها كانت الساعة تشير إلى الثامنة مساء ، فدخلت على الطبيب الذي صارت بيني وبينه وبيني وبين مساعده أُلفةً ، فألقيت السلام على مساعد الطبيب بعدما أشرت إليه بسبابتي اليمنة التي وضعتها على فمي ، ثم أشرت إليه بسيف يدي ووجهتها إلى رقبتي اشارةً مني على ذبحه إذا تفوه بكلمة اني أُراجاع طبيبه النفساني .

هز المساعد رأسه اشارة منه على السمع والطاعة ، وبعدها أخبرني أن الطبيب ينتظرني منذ نصف ساعة ، فطلبت منه وفي عجالة فنجان من القهوة قليلة السكر ، محذرًا إياه من الاستجابة لطلب الطبيب المجنون واحضار ليمون بدل من القهوة ، بعد تحذيري لمساعدة الطبيب ولجت من باب غرفته الذي استأنسته لأجد الطبيب على حالته ككل مرة أَقدم فيها إليه ، فهو يجلس متكئًا على كرسيه الجلدي يقرأ في إحدى المجلدات على مكتبه ويضع قلمًا في فمه ، فألقيت عليه السلام

فرد عليَّ السلام ثم قام من كرسيه واعتدل .

- مساء الأنوار يا دكتور .
- مساء الأنوار خالد بيه ، يا أهلا وسهلا .
- تشرب إيه يا كابتن خالد .
- شكرا يا دكتور مش كل مرة ، كده هنخسرك ، لو ممكن قهوة على الريحة لو سمحت .
- يا سيدي ولا يهمك ، أنت تأمر ... يرفع الطبيب سماعة هاتفه كما فعل من قبل لينادي على محمود المغلوب على أمره ... هات ليمون يا محمود لخالد بيه .
- تبسمت في خبث وسكت ، وقلت في بالي نهار أبوك أسود يا محمود إذا فكرت تجيب ليمون .
- اتفضل يا خالد بيه عايز تحكيلي ايه النهارة .
- أنا طبعا بعد ما أنهيت الدورة التدريبية لقيت نفسي منقول لمحافظة الفيوم لأمارس عملي في عاصمة المحافظة ، وبالطبع الفيوم كانت مختلفة بعض الشيء

عن القرية التي كنت فيها أحسن طبعا بكتير .

- كده تمام زي الفل على الأقل يا خالد بيه ربنا كرمك ببلدين جوهم حلو وهيريحك هدوء وخضرة وناس طيبة .
- آه والله يا دكتور صدقت ، كان نفسيتي زي الفل ومرتاح آخر راحة .
- طايب يا سيدي تمام إيه اللي زرع الشك في قلبك تاني ما دامت نفسيتك مرتاحة .

اللي تعب نفسيتي هو الصدفة التي جمعت بيني وبين أحد زملاء المدرسة أثناء تجوالي على شاطيء بحيرة قارون حسب ما اقتضته طبيعة عملي بمباحث الآداب التي عدت إليها ثانيةً بعد أن رضي رؤسائي عني ، وكنت أثناء تجوالي أبحث على بعض الحبيبة الذين يلتقون خفية عند البحيرة ليتبادلوا القبلات والأحضان في أجواء الطبيعة الرحبة وفي غياب الأهل والأسرة ، وأثناء سيري على شاطيء البحيرة ، سقطت عيني دون أن أدري على رجل أثارت ملامح وجهه انتباهي ، فرحت أغدو وأروح أمامه في خفة ورشاقة كي لا أثير انتابه ، فقادني تفكيري للبحث

عن ماهية هذا الرجل الذي ربما أعرفه ، فأنا أعرف نفسي جيدا إذا فكرت في شخص ما ، فأنا بالتأكيد أعرفه ورأيته من قبل ، فذاكرتي والحمد لله قوية لا تنسى من رأتهُ من قبل مهما مرت عليها الساعات أو اللحظات .

أخذ البحث عنه في ذاكرتي بضع دقائق ، حتى تطابقت صورته الواقعية مع صورته المحفورة في الذاكرة منذ زمن بعيد وإن أصابها بعد التشويش نتيجة مرور السنوات عليها وكثرة المعلومات المخزنة ، إلا أنني عرفته رغم هذا العناء رغم أن ملامحهُ تغيرت بعض الشيء عن صورته المحفوظة التي أبت أن تخرج إلا بعد أن قدَّمت لها البراهين كي تتقبل الصورة الحديثة ، فقلت لها : ربما هذا الفارق في الشكل حدث نتيجة تقدمه في العمر ، فهو الآن يلامس الأربعين من عمره ، والدليل على أنه هو ... بشرته السمراء التي تتطابق والصورة المحفوظة ، وكذلك عيناهُ البُنيتان الغائرتان اللتان مكثتا أسفل حاجبيه العريضين ، فتلحظ أن هناك تناغم بين وجهه وجسمه المتوسط ما بين الطول والعرض والممتلىء قليلًا ببعض الشحوم واللحوم ، وما استحدث على وجهه وجسده شارب مكتظ بالشعر الكثيف ، أخيرا بعد حيرة جاءتني الإشارة من عقلي

الباطن بتطابق ما رأيت مع المحتوى المحفوظ في الذاكرة ، إنه هو ، هنا أقبلت عليه بثقة بناء على ما تلقيت من إشارة مباشرةٍ وناديته باسمه ، محفوظ ، يا محفوظ .

- وجه محفوظ وجهه تجاهي مستغربًا أني أناديه باسمه ، فقلت له : إنت يا واد مش عارفني ولا إيه ، الله يخرب بيتك ... أنا خالد ، أنتَ مش فاكر عمك خالد علي زميل عمرك ، ولا نسيت يا واطي ؟
- أجابني محفوظ الذي بلغت حيرتهُ منتهاها : خالد علي ، ياه هو أنت لسه عايش يا فقر ، تتخيل أنا معرفتكش ، ملامح وشك اتغيرت خالص ، وصدرك عرض وتحس أنك طولت والشنب كمان مخليك مش أنتَ .

لم يعرفني محفوظ رغم أني عرفته فربما كان جهاز بحثه معطلًا ، فرحت أسأله عن سبب تواجده في هذا المكان البعيد عن مسكنه في القاهرة ، فقال لي : إنه كان بجولة ترويحية برفقة زوجته وأمه اللتان ذهبتا معا إلى الاستراحة لشعور زوجته بالتعب ، فطلب مني الجلوس كي نسترجع الأيام الخوالي التي مضت ، وأصر محفوظ على أن نتناول غداؤنا معًا ، ودار رحى

الحديث بيني وبينه إلى أن طلب مني أن أحدثه عن حياتي التي أعقبت فترة الثانوي .

ورحت أجاوبه دون تكلف فهو زميل الدراسة القريب إلى قلبي : شوف يا محفوظ أنا شغال هنا في محافظة الفيوم في مباحث الآداب منذ وقت قصير ، فمنذ أن تخرجت من كلية الشرطة وأنا أتنقل من مكان إلى مكان ومن بلد إلى بلد ، إلى أن استقر بي المطاف الآن في هذا المكان منذ أشهر ، فبعد أن تم تعييني أقدمت على الزواج لأكمل نصف ديني كما يقولون .

استجبت لصرصرة أمي المتواصلة عليَ ، فلا حديث لها إلا حديث الزواج ، فلقد كان أمامي عدة خيارات على رأسها بنت خالتي جودي التي كانت دوما تلوح في أفقي ، وقد رشحتها لي خالتي التي تعد بمثابة أمي وليست خالتي التي كنا نشعر معها دومًا بالدفء والحنان والراحة مثلها مثل أمي تمامًا ، فقالت لي خالتي ذات يوم : ما رأيك يا خالد في عروسة مثل القمر تروق لك عندما تراها .

قلت لها إتيني بها يا خالة ، فأنا بها إن شاء الله من

الظافرين ، وفي عُجالة من أمري بالارتباط هربًا من صرصرة أمي وإصرارها ، وخشية أن أجد نفسي متزوجًا ممن لا تروق لي من بنات إحدى صديقات أمي ، فأنا لا أطيقهن من قريب ولا من بعيد فلا توجد رغبةً مني في إحداهن ، فهن كثيرات الكلام واللت والعجن ، فقالت لي خالتي صراحةً دون خجل : ما رأيك في بُنيتي جودي الجميلة ، فكل شباب العائلة يرغب في الزواج منها ، لكني ادخرتها لك ، لأني لم أجد مثلك في الكون قط .

ارتبكت في باديء الأمر وقلت لها : هل يوافق أباها على زواجي منها ، فأنتي تعلمي أنه يبغضني ويكرهني دون سبب يذكر ، ردت خالتي وقالت : لا شأن لك بأبوها ، فأنا القول الفصل في كل ما يخص البيت لأني أنا من يدير ولا يُدار . . أعطني رأيك ولا تقلق ، فستجدني قاطعة الأمر لك ، المهم أعطني جوابك ، فلبيت على الفور طلبها دون تفكير مني ولا تدبير ، ووافقت على الزواج من بنت خالتي ، وما هي إلا أيام حتى تقدمت للزواج من جودي الجميلة التي كان يلقبونها في العائلة بفرجينيا جميلة الجميلات ، فهي فتاة جميلة تقف كثيرا أمام عيونها الممزوجة بالأخضر والأصفر ناهيك عن نصاعة

وجهها الأبيض الذي يضيء كالقمرِ في ليلة ظلماء .

لكن ما يعيبها أنها مثل باقي النساء كثيرات الزن والثرثرة ، فهي كأبيها الزنان النمام الذي لا يكف عن مضغ الطعام حتى والناس نيام ، لكني لم أكرهها يومًا قط ، فقد وضعتها عندي كأمانة وكان إكرامها عليَ لِزاما ، فكل شيء يهون من أجل خالتي التي أحبها كثيرا .

تزوجنا بعد أن اتفقنا على كل شيء إلى أن رزقنا الله بعلي الذي سميته على اسم والدي ، وهو عمره الآن أربع سنوات بالتمام والكمال ، وبنت سميتها دعاء وعمرها الآن عامان ونصف ، وهما معي هنا في استراحة الضباط ، فما رأيك في يوم غدًا نجعله موعدًا نلتقي ، حتى تتعارف الزوجتان على بعضهما ونوطد العلاقة فيما بينهما .

رد محفوظ بخجل : هذا شيء يسعدني ويشرفني يا صديقي لكن اليوم حددته موعدًا لسفري من الفيوم ، فليس أمامي إلا بضع ساعات أنطلق بعدها إلى القاهرة حتى ألحق بموعد سفري إلى الكويت صباح غد السبت فطائرتي ستقلع غدًا الساعة السابعة صباحًا ، فاعذرني يا صديقي ، فربما نلتقي يومًا آخر

نحدده سويًا ، لكن لابد أن نتبادل أرقام هواتفنا حتى نتواصل دون انقطاع ، تلك كانت قصتي يا عمي محفوظ ، فأقصص علينا ما عندك دون تقصير أو تضليل ، فمازال الوقت أمامنا طويل وليس قصير .

أنت تعلم يا خالد أني شاب كأي شاب له طموح وأفكار وأحلام أردت أن أحققها ، وكانت أولى أحلامي السفر للعمل بأي دولة عربية أو أجنبية أحقق بها ذاتي التي ضاعت هنا وسط زحام الواسطة والمحسوبية ، فأنا لست مثلك من حيث الظروف والإمكانيات ، لأني كثير الآهات والأنات من الألم الذي لحق بي منذ أن تركني أبي طفلا صغيرا ، وعكفت أمي على تربيتي حتى صرت شابًا عاتيا كما ترى ، فالفضل لله ثم لأمي .

كل ما طمحت إليه هو أن ألتحق بعمل شريف يسترني وأمي التي كدت وتعبت وسهرت وحرمت نفسها من أجل أن تربيني وتنفق علينا ، فسعيت بكل السبل أن أريح هذه المرأة التي تستحق مني الكثير ، فمهما فعلت فلن أعوضها عما فعلت من أجلي بعد موت أبي الذي رحل عنا وأنا مازلت صغيرًا لا

أعي ما أقول وما أفعل ، فسرنا في معترك الحياة معًا التي لم ترحم كبيرًا ولا صغيرًا ، وخصت بذلك كل من كان فقيرًا ، وزادت عليه في قسوتها بكل ما أتاها ربها من قوة .

انهيت دراستي الثانوية ثم التحقت بكلية التجارة بجامعة عين شمس ، وبعدها عقدت النية على السفر ، فلا بديل عن السفر ولا مفر من السفر إلا إلى السفر فأشار إليَ أحد أصدقائي الأعزاء بمراجعة إحدى مكاتب إلحاق العمالة بالخارج في ميدان التحرير الشهير بالقاهرة بعد أن أكد لي أن في هذا المكتب سأجد ضالتي ، فذهبت وكلي ثقة في ربي أن يرح بالي ويرزقني رزقًا حلال أسدُ به جوع سنوات مضت ومستقبل آتي الله وحده الأعلم به .

وفقني الله بعد صبرٍ وجلد فوجدت عقد عمل إلى دولة الكويت وبراتب شهري لم أحلم به في تلك المرحلة ، وعلى الفور شرعت في إنهاء إجراءات السفر ، وبعد عدة جولات تنقلت فيها بين البنوك والسفارات والتوثيقات والمستشفيات فكنت أُقذف وأتلقف بينهما بلا رحمة ،تحت صراع مرير عنوانه أكون أو لا أكون ، وفي النهاية كلل الله تعبي بالانتصار على

الروتين وظفرت بإنهاء إجراءاتي التي كادت تقضي على وجودي في الحياة بسبب الروتين .

سافرت والتحقت بإحدى الشركات الاستثمارية وفقًا لعقد العمل الذي حصلت عليه ، فعملت هناك محاسبًا في إحدى الشركات الكبيرة التي أبهرتني في باديء الأمر بسبب ديكوراتها الأنيقة ومكاتبها الفسيحة وسجادها الأحمر الذي يشعرك بالعظمة والرقي ، فكانت الشركة من خمسة طوابق بها أعداد كبيرة من الموظفين فتشبه إلى حدٍ كبير خلية النحل فالكل يدور في فلكها الوالج والخارج ، لكني آلفتها بعدأن اعتدت عليها إلا أنني ظللت حبيسًا لها ولجدرانها طوال سنوات مضت .

عملت واجتهدت بكل عزيمة وإخلاص ، فكان لساني لا ينطق إلا بكلمة حاضر نعم ، نعم حاضر ، حتى كدت أنسى اسمي ونفسي ، ورغم أحقاد الزملاء وبعض الأقرباء ، إلا أن الله نصرني ووفقني ، لأني لم أغضبه عز وجل قط منذ أن وطأت قدمي هناك ، فأنعم عليَّ وحققت المراد والنجاح الذي أتبعه نجاح حتى أمسكت بزمام الأمور كلها ، فكنت أنا صاحب الكلمة المسموعة العلم الموسوعة والأذان كلها كانت لي منصةً

تسمع ما أقول ، إلا أنني لم أسلم من عيون الحُساد والحقاد الذين كثيرا ما طعنوني في ظهري إلا أن عناية الله كانت خير حافظا لي .

بعد مرور سنوات الغربة نسيت فيها متاعبها وآهاتها وأناتها من أجل تحقيق هدفي وهو جمع ما استطعت من المال ومن ثم إكمال نصف ديني ، فالمال الذي سعيت أن أظفر به بالحلال مكثتُ أجمعه سنوات عدة غير مبال بأي شيء في الحياة إلا بالحفاظ عليه وجمعه ، فأصبحت له أمًا تحتضنه وتخشى عليه من أي مكروه قد يقع له ، فلم يجرأ أحد أن يهم ويأخذه من حضني .

بعد جمع المال بحثت عن الاستقرار قبل الوصول إلى دار القرار ، وطمعت في فرصة للغوص في ملذات الدنيا بما حلل الله لنا ، فبعد أن كانت الوحدة سلواي في غربتي فلا صديق ولا رفيق هناك غير العمل ، ورغم صعوبتها إلا أنني تغلبت عليها بفضل أمي التي جعلتني أتحمل آلامها ، فكانت تدفعني إلى الأمام دفعًا ، وتحثني على الجد والاجتهاد والصبر والجلد رغم البعاد عنها ، فكان الاتصال بها هو الهواء الذي يبقيني على

قيد الحياة ، وكانت دعواتها نبراسًا يضيء لي الطريق ، فكنت أبحث عن حضن دافئ يحتضني أنا ومالي معًا ، فاقتصر حديثنا وسلوانا أنا وأمي عن بنت الحلال التي كنت أتظاهر بالتمنع عندما تحدثني أمي عنها ، ولكني في قرارة نفسي لم أقطع الحلم بها يوما .

بعد مرور ثلاث سنوات قررت العودة لموطني في اجازة قطعت بها السنوات العجاف التي مرت ، فلكي أستطيع مواصلة عملي من جديد كان لزامًا عليَّ تجديد نشاطي وهمتي لكي أستمر مرة أخرى في الغربة رغم كل ما فيها ، وكان أملي وقتها أن أجد ضالتي وهي الزوجة التي أصبحت الآن ضرورة ملحة ، فأنا أحتاج إلى من يساعدني ويريحني ، فلم أخلق في هذه الحياة للكد والتعب فقط بل للمتعة والاستمتاع أيضًا .

وصلت إلى مطار القاهرة وكنت أستجدي الطائرة أن تطير وتطير بأقصى ما لديها من سرعة ، رغبةً مني في الوصول لموطني الذي غبت عنه سنوات وأمدَ وكان أملي أن أرى بعدها أمي وأختي ، فهما الإرث الثقيل الذي تركه لي أبي بعد أن رحل عنا ، تاركًا لنا همًا ثقيلًا ألقاهُ على كتفي ورحل .

مكثت سويعات طوال شارد الذهن أفكر في أمي وأختي وبيتنا القديم إلا أن أختي لم تنال قدر أمي من التفكير ، فهي اختارت البعد عنا والانقطاع بعد أن تزوجت ، ظللت على هذه الحالة ولم أفق منها إلا عندما وكزني أحد الجالسين بالطائرة وكزة رقيقة في جانبي ، لينبهني بأن آخذ وجبتي من يد المضيفة التي طال انتظارها وهي تمد يدها إليَّ دون أن أنتبه لها ، فلبيت نداؤه على الفور بعد أن فقت من غيبوبة شرود الذهن ففتحت الطاولة أمام مقعدي ووضعت عليها طعامي الخفيف الذي كان عبارة عن خبزتين صغيرتين ، إحدهما وضع بداخلها الجُبن والأخرى وضع بها البيض وكوب صغيرٌ أبيض بلاستكي لشرب الماء ، وآخر أزرق لشرب الشاي وقطعة صغيرة من البسبوسة وكيس للسكر وآخر للملح ، فالوجبة في مجملها لا تغني ولا تسمن من جوع .

تناولت الطعام ثم مرت المضيفة مرة أخرى ووضعت شرفتين من الشاي لا أكثر في الكوب الأزرق الذي حمل الشرفتين بأقصى طاقته فلم يتحمل أكثر من ذلك ، شربت الشاي وشردت مرة أخرى في التفكير والأحلام ،طمعًا في أن يمر

الوقت ، وبينما أنا على حالتي حتى جاء الفرج ونادت المضيفة على الركاب أن اربطوا أحزمة مقاعدكم استعدادًا للهبوط الذي لم يتبق عليه إلا دقائق معدودة ، مرت تلك الدقائق بسلام ، وأرتطمت عجلات الطائرة مرة أخرى بمدرج المطار . . لكن هذه المرة على أرضي ووطني الذي عشت واستقريت فيه منذ طفولتي مرورًا بصباي ومراهقتي .

سارعت بأخذ تاكسي من المطار الذي كان ينتظر دوره في نظام لم أآلفه في بلدي التي ضاعت في غيابات الفوضى والفساد ، كان البياض يغطي معظم أجزاء التاكسي إلا من بعض القطع السوداء التي غطت بعض جنباته يمينًا ويسارًا ، وسوادًا آخر غطى أعلاه بشبكة خصصت لوضع الحقائب عليها ، لم ترتسم السعادة على وجه السائق الذي كان يطمع في الظفر بسائح عربي أو أجنبي ، أخذ السائق الشنط وربطها بخيط سميك كي لا تطير ما يحمله التاكسي في الهواء ، وللتاكسي أرجل سوداء زُينت بحلية صفراء لتحمله بمن فيه من مسافرين وحقائب ثقيلة كانت أم خفيفة ، ورغم أن التاكسي مر عليه عُمرٌ طويل كونه من الصناعات القديمة التي تعود لحقبة السبعينيات ، إلا

أنه بدى بصحة جيدة .

أثناء سيرنا في الطريق من المطار إلى بيتنا ، كان بيني وبين السائق المكتئب حوارًا طويلًا ، بدأها هو بالحديث عن ضيق الحال والأقساط التي قسمت ظهره وارتفاع الأسعار وقلة الزبائن ، ثم تطرقنا لموضوعات كثيرة أولها أحوال البلاد والعباد والأسعار والتغيريات التي حلت ، وكان مبتغاي من هذه الأحاديث الطويلة استهلاك الوقت الذي مر ببطيء ، فهذا كان مبتغاي الذي خالف ما كان يبطن السائق من خبثٍ للظفر بما يطال من المال ، واصلنا السير حتى بيتنا ،فوقف السائق بعد أن انفرج وجهه وابتسم أخيرا ، فأنزل الحقائب على الأرض وهو يقول : حمد الله على السلامة يا سعادة الباشا ، نورت بيتك ومطرحك ، وبعد أن انتهى طلب مني بقشيشًا بعد أن أخذ أجرته كاملة ، فأعطيته عشرة جنيهات وقلت له اشرب بها تعميرة – حجر شيشة – فضحك ضحكة خبيثة أظهرت أسنانه الملوثة بالأدخنة والشاي .

وقف التاكسي أمام بيتنا القديم الذي أهلكته الأيام وعوامل التعرية والهم والغم ، إلا أنه رغم قِدمهِ وقسوة الدهر عليه ظل

متماسكًا صامدًا مقاومًا تقلبات الدهر ونكباته ومتصديًا لها ، فلكم تحمل هذا البيت عناءً مثلما تحمل أهلنا أهات وأنات السنين والشقاء خلال سنوات عجاف مرت وولت ، بعد أن ثبتوا كما ثبتت الجبال شامخة ، إلا أن لون البيت تبدل مع مرور الأيام ، فتحول من الأصفر الصافي كأشعة الشمس إلى الأصفر المخلوط بألوان الطبيعة الحمراء منها والخضراء والزرقاء ، فعندما تراه يختلط عليك الأمر من كثرة الألوان التي رأيتها أمام عيني .

فرحت أسأل نفسي : يا تُرى هل هذا بيتنا هل هذا لونه ؟ هل هذا اللون برتقاليا أو هو أصفرًا خلط بالأخضر أو ربما بالأزرق ، إلا أنك في النهاية تدرك أن الطقس كان له دورًا كبيرا في هذا الخليط ، فالبيت قديما متهالك سانده ستر الله الذي لا يغفل ولا ينام ، فلولاه لانهار البيت وهلك ، فترى من خلال حوائطه البالية من يقطنون فيه بسبب التشققات التي هاجمت جدرانه بشراسة ، والتي أتاحت للمارة بالشارع رؤسة من في البيت ، وصورة هذا البيت ما هي إلا صورة للفقر المضجع والحياة البائسة التي يعيش فيها عامة الناس ، وبيتنا القديم حملت حوائطه ثلاثة طوابق في كل طابق شقتين اثنين

لا ثالث لهما ، وما أن دخلت البيت حتى شممت طينه وعبق الماضي فعلى الفور سبحت في طي الذكريات وتذكرت طفولتي وشبابي ، وأمي وأبي .

صعدت لأعلى حاملا حقائبي بكلتا يدي ، وما أن صعدت لأعلى سلمه حتى ركضت أمي نحوي ، فرميت الحقائب من يدي وارتميت في حضنها الدافيء دون وعي لما أفعل ، احتضنتني أمي بقوة ، وسرعان ما شرعت في البكاء وأخذت تذرف الدموع من عينها كالماء المنهمر ، ثم راحت تقبلني على وجنتي ورأسي ثم عادت لترتمي بين ذراعيا مرة أخرى ، فظلت على فعلتها تقبلني وتحتضني لدقائق معدودة ، دخلنا شقتنا بعد أن حملت حقائبي الثقيلة ، وأمي لم تتوقف عن الدعاء لي بالرزق الوفير والصحة وبنت الحلال ، معبرةً عن أمنياتها أن ترى أحفادي في حياتها قبل مماتها .

استمر الحديث لساعات قصت أمي خلال هذا الوقت قسوة الأيام والوحدة التي ظلت تعيش فيها بلا رفيق ولا أنيس بعد أن هجرتها أختي هجرًا بعد زواجها ممن تحب ، فعاشت بعيدة مقصرة في حق أمها المسنة التي لم تجد من يساعد

أو يعطف عليها ، وبعد أن فرغنا من شكواها في حق أختي ، قالت لي : متى أرى زوجتك ؟ فأنا أحتاج من تساعدني وتؤنث وحدتي وتعينني على متطلبات الحياة القاسية التي لم أقدر على تحملها ، بعدها هرشت في رأسها وقالت : هي هدى بنت الجيران ، فقلت لها من هدى ؟ فقالت : هدى يا واد أنت نسيت هدى ولا ايه ؟ ! هدى بنت عمك السيد ، فقلت لها : آه هدى بس دي لسه صغيرة يا أمي ، فردت قائلةً صغيرة مين يا واد دي عروسة وزي القمر كمان ، وراحت أمي تتغنى بالفتاة وجمالها ورقتها ، فأنا لم أرَ ما قالت أمي لأني لم أراها منذ زمن بعيد ، فهي كما وصفتها أمي فتاة تحمل الجمال في حسن خِلقة وخليقة ، منذ نشأتها وحتى شبابها ، فهي عروسة مكتملة الأوصاف من وجهة نظر أمي التي ظلت تصف فيها مرارا وتكرارا أثناء حديثنا سابقا عبر الهاتف وعندما وصلت .

طلبت من أمي أن تريني إياها بإحدى طرقها التي لا تنضب دون أن تسبب للبنت أي حرج أو خدش حياء ، فربما لم تعجبني ، ففكرت أمي في حيلة ماكرة كي أراها دون أن تشعر ، فاستدرجتها أمي دون أن تشعر ، فقامت ونفذت خطتها على الفور بعد أن فتحت باب الشقة ، وراحت تصيح بأعلى

صوتها : يا هدى ، يا هدى ، تعالي وساعديني يا بنتي ، ربنا يباركلك ، ما خلاص أنا عجزت وكبرت ومبقاش فيا حيل ولا شدة ، فسمعت صوتًا عذبًا يجاوب صوت أمي ويقول : حاضر يا خالتي أنا جايه أهوه ، وما هي إلا ثواني ووجلت هدى من باب الشقة بعدما جاءت مسرعةً دون شك أو ريبة في الأمر فعندما رأيتها صدمت مما رأت عيني ، وقلت في نفسي : هل هذه هدى الفتاة الصغيرة سرعان ما كبرت ؟ ! بسم الله ما شاء الله .

دخلت هدى وقالت أمي : تعالي يا بنتي تفضلي وساعديني في نقل الحقائب من الصالة إلى غرفة المسافرين فلبت هدى النداء بقولها : حاضر يا خالتي .

وبعد أن دخلت توقفت خلف باب شقتنا المتواضعة والتي لم يختلف حالها عن حال بيتنا القديم ، فالشقة دارت عليها رحى الأيام كما دارت عليه ، فهي قديمة وأثاثها متهالك ومفارشها بالية ، وجدرانها شُقت بفتحات طويلة من أعلى الأرض حتى السقوف لفظت الطلاء وبعض حبيبات الرمال ، فكانت حبات الرمال تتساقط كل يوم دون توقف فهي تزيد

في السقوط ولا تنقص .

أأنت هدى بنت الثالثة والعشرين عاما صاحبة الجسم القوي المتين الممتلىء الذي لم يعيبه بل زاده حسنًا وجمالًا ، وأكثر ما لفت نظري لها أرجلها الملفوفة من بدايتها لنهايتها ، وانهمر من أعلى رأسها لأدنى سلسبيل من الشعر الأسود الناعم الذي تطاير بسبب خفته عندما تحركت ، فقد منح الله البنت وجهُ خمري يخلو تمامًا من بعض الحبات التي شوهت وجوه الشباب والشابات ، فتعجبت من قدرة رب العالمين في خلق الإنسان الذي صوره في أحسن صورة .

وقفت هدى في خجل وسارعت أمي بالحجة كي لا تفر هاربة من أمامي ولكي تبثتها دون حركة كي أتمكن من رؤيتها على مهل وليس على عجل ، فقالت أمي مسرعة : معلش يا بنتي غصب عني تعباكي معايا ، وراحت تردد بعض الأدعية لها ومنها الرزق الحلال والفوز بالزوج ، ثم غيرت أمي حديثها وراحت تسب أختي التي اختارت زوجها بديلًا عن أهلها ولم تعد تسأل على أمها ، فقالت أمي : سيئة الحظ من رزقت ببنت « قطيعة تاخد البنات واللي عايزها ، الهانم من

يوم ما اجوزت ولا جات في يوم وقالت فين أمي ، ولا أكني أمها ولا أعرفها .

الحديث دار بينما شُغلت بهدى ، فلقد أحدثت زلزالًا عنيفًا بشقتنا كاد أن يعصف بكل ما فيها ومنهم أنا ، فقد شعرت بهزة عنيفة زلزلت الأرض من تحت قدامي ، فما أن دخلت هدى باب الشقة حتى خفق قلبي وزادت نبضاته وجحظت عيوني وتحرك وجداني ، فحولتني رؤيتها لشخص آخر ،إلا أن هدى قطعت حديث أمي وألقت عليَ التحية في خجل ، فسارعت أمي وقالت لها : ايه يا هدى انتي نسيتي محفوظ ولا إيه ؟ إنتي افتكرتيه حد غريب ولا إيه ، إحنا معندناش حد غريب يا ست البنات ، محفوظ رجع النهاردة من غربته ، فألقت هدى : حمد الله على سلامتك يا أستاذ محفوظ ، فرحبت بها وقلت لها : ما شاء الله لقد بلغتي من الكبر حتى أصبحتِ عروسًا ، فأحمر وجهها وأصابها الخجل ولم تعقب ، إلا أن أمي لم تصمت فحركتها بصنعة لطافة أكثر من مرة أمام عيني ، بغية أن أتمكن من رؤيتها جيدًا ، فكلما جاءت بحقيبة طلبت منها إرجاعها ومن ثم نقلها مرة أخرى فراحت وغدت أمام عيني

مرات عديدة .

ساعدت هدى أمي المُسنة في نقل ما حملته من هدايا وأمتعة وأثناء تنقلها لم تفارقها عيني ، بل راحت تتفحصها قطعة قطعة وجزءًا جزءًا من أسفل ساقيها مرورا بخسرها النحيف وصولًا لخُصلات شعرها الناعمة ، هي الأنثى التي كنت أتصورها وأضعها في مخيلتي كم حلمت دومًا ، فكان مرورها أمامي مر السحاب لا ريث ولا عجل ، فرحت أغوص بنظراتي فيها وفي جسمها المنسق المتسق متتابعًا تفاصيلها الرقيقة فرسمتها بعيوني كما رسم الفنان الماهر لوحته ، فرحت أمسك بريشتي معبرًا عن أدق تفاصيلها وإن كانت صغيرة .

انتهت هدى من نقل ما جلبته وإن أصابتني الحسرة على الوقت الذي مر عليَّ كالطيف ، فتمنيت لو أنه طال وطال كي لا أفارقها استمتاعًا بها وبجمالها ، فطلبت هدى الإذن بالرحيل ، فشكرتها أمي على فعلتها ورحلت في صمت إلا أن نظرها ظل متعلقًا بالأرض .

حاورتني أمي سائلةً عن رأي فيها ، فعبرت لها عن

قناعتي بها ، فأدبها وجمالها أخذني أخذة واحدة بلا رجعة ، فقد شلت تفكيري وجعلتني لا أفكر إلا في شئ واحد هو الزواج منها ، فحدثت نفسي : ولما لا تكون زوجة لي ، فالبنت جميلة وسيرة أَهلُها عطرة ولا تحوم حولهم أي شائبة أو شبهة فعمي السيد رجل خلوق وكذلك زوجته ، انتهى اليوم على خير .

وفي اليوم التالي طرق أمي باب عمي السيد وفتحت أمها في طلبي الزواج من هدى ، لم تبدي زوجة عمي السيد أي تعليق سوى بعض الإبتسامات وبعض الكلمات من باب المجاملة ، ووعدت أمي بالرد السريع على طلبها بعد عرض الأمر على أبيها ، مرت ثلاثة أيام ونادت زوجة عمي السيد على أمي وقالت لها : أمتى هتشرفونا بالزيارة إنتي ومحفوظ ، غمرت السعادة قلب أمي بعد أن هجرتها سنينًا وأمدًا ، فراحت تطلق الزغاريد فرحا بقبول طلبها .

بعدها بدأت الزيارات تتبادل بيني وبين أهلها إلى أن حصل التوافق في الحلال بعد أنا أكملنا استعدادات الزواج في زمرة الزوجات ، وبعد أنهينا بعض الترتيبات والاستعدادات دخلنا القفص الذهبي بمباركة الأهل والأقارب والأصدقاء ، واحتفلنا

سويا بهذا الرِّباط المقدس حتى عمت السعادة والفرحة بين الجميع ، فحطمنا معًا باب العزوبية وأغلقناهُ للأبد دون رجعة .

لكن لحظات السعادة لم تدم كثيرا فبانتهاء الأجازة انتهت لحظات السعادة بيني وبينها بعودتي مرة أخرى إلى الغربة لاستكمال عملي بعد أن تركت هدى في أشد أوقات الحاجة للعطف والحنان واللحظات الرومانسية التي بسببها ودعت حياة العزوبة وأصبح كل شيء مباح ومتاح بأمر العلي الفتاح كون الزواج سنة من سنن الحياة ، سافرت تاركًا هدى بصحبة أمي ، وما أن وطأت قدماي غربتي حتى سعيت لتأثيث بيت آخر للزوجية – فلا حياة في غربةٍ من غير زوجة تملأ عليك الحياة ، فخشيت أن تعاني زوجتي وتقاسي مرارة الوحدة فتعود حيث كانت ولم تكن ، متنقلة بين بيت أبيها وبيتنا فعزمت على وجودها برفقتي .

أعددت شقة في غربتي ثم أحضرت زوجتي معي ورزقنا الله بولدان وبنت ، ابني الأكبر عبدالرحمن على اسم أبي وعنده من العمر الآن خمس سنوات ، ثم سيد على اسم أبو زوجتي وعمره ثلاث سنوات ، ثم ليلى وهذه على اسم حماتي وعمرها

سنتان ، تلك كانت قصتي من بدايتها لنهايتها يا صديقي .

صافحت محفوظ بحرارة ، ثم ودعته بالأحضان وانطلقت إلى عملي بعد أن استغرقنا وقتًا طويلًا دون نشعر به ، رجعت إلى الاستراحة وتناولت طعامي مع زوجتي وأولادي ، ثم جاءني اتصال من قسم الشرطة يطلبوني أن أحضر إليهم في عجالة ، فلبيت النداء على الفور وانطلقت في عجلة من أمري ، وكان العسكري المسؤل عن تلقي الإشارة واقفًا أمام باب القسم ينتظرني ، فزعت لرؤياه وظننت أن كارثة قد وقعت وحلت بي وبالمكان ، فأخذت أردد في سريرتي : سترك يا رب ، إلا أن ابتسامة العسكري هدأت من روعي قليلًا ، فقلت له : ما بك يا رمضان ؟ فرد إشارة وبشرة خير يا باشا . . لقد تم نقلك إلى القاهرة والتنفيذ من صباح غد .

مسكت بورقة الإشارة الواردة من مديرية الأمن وأنا لا أصدق ما حدث ، فقرأتها بسرعة البرق ، وكان مفادها أن أنقل إلى قسم شرطة الدقي بدأً من غد السبت مع الالتزام بقرار النقل وسرعة التنفيذ .

طرت من الفرحة وكدت ألامس عنان السماء ، وقلت في نفسي : أأخيرًا سأعود إلى القاهرة مرة أخرى وأترك الفيوم ، فرغم جمال المدينة التي تحفها المزروعات من كل اتجاه ، فلا تسمع لها ضجيجًا ولا صراخًا ، لكن تبقى قاهرة المعز هي القاهرة الأقرب إلى قلبي ، عدت أدراجي سريعًا إلى الاستراحة لأخبر زوجتي بتلك المفاجأة السارة ، ففي القاهرة سنكون بين أهلنا غير الفيوم التي قطعت فيها أوصالنا وأرحامنا ببعد المسافات ، كان للخبر صدى فسقط كالألعاب النارية التي تطلق في السماء ابتهاجًا وفرحًا ، فرقصت زوجتي وأولادي فرحًا وابتهالًا بهذا الخبر السعيد ، إلا أني طلبت منهم التعجل بجمع متاعنا في حقائب السفر ، لننطلق مسرعين التزامًا بقرار النقل السعيد من الفيوم إلى القاهرة .

انتقلت ليلًا بسيارتي أحمل فيها أسرتي وحقائبي إلى بيتنا ، بعد عدة ساعات وصلنا بحمد الله إلى شقتنا الفسيحة ، والتي اشتراها أبي لي ، وكانت في منطقة الزيتون التي كنت أعشقها وأرتاح فيها ، فأهلي وأهل زوجتي يعيشون في تلك المنطقة الهادئة .

وصلنا شقتنا مكان اطمئنان سريرتنا ، وكانت بالدور الثاني بإحدى البنايات المتوسطة الإرتفاع ، وما إن فتحت الباب حتى هممت بالضغط على أزرة الكهرباء ليتبدَّل ظلام بيتنا نورًا ، وضعت الحقائب على الأرض وهممت إلى النوافذ ففتحتها كي يملأ الهواء أرجاء المكان ، بعدها نمت نومًا عميقًا من إرهاق ساعات السفر رغبةً في أن ألحق بعملي مبكرًا ، استيقظت وكأني لم أنم منذ أيام بعيدة ، فما قطع نومي سِوى صوت الهاتف الذي ملأ المكان ضجيجًا حتى ايقظني ، ففقزت على الفور أتوسل إليه أن يسكت خشية أن يزعج ضجيجه زوجتي وأولادي فيعكر عليهم صفو نومهم الهاديء ، ارتديت ملابسي وانطلقت دون أن أتناول فطوري وتوجهت إلى قسم الدقي امتثالًا لقرار النقل .

كان في استقبالي زميلي القديم عمرو خورشد ، وكان عمرو شابًا أنيقًا جميل الخلقة إلا أنه كشباب اليوم لا مبدأ له ، رحب بي عمرو ثم وجهني إلى مكتبي المختلف كليًا عن مكتبي بمحافظة الفيوم ، فالمكتب فسيح أنيق به نوافذ كبيرة تملأهُ شمسًا وهواءً ، وبه كرسي خشبي مكسو بالجلد الأسود يقف على أربعة أرجل تحركه في أكثر من اتجاه ، يقف في صدر الكرسي مكتب خشبي بني اللون له من الفخامة والعظمة ما

ينم على أنه لأحد الأثرياء في حقبة الخمسينيات ، يكسو أرضية المكتب خشب بني تنام عليه سجادة حمراء قديمة عتية لكنها نظيفة ، وفي أرجاء الغرفة البيضاء وضعت كنبة جلدية سوداء وثلاث كراسي بنفس اللون .

طلب مني عمرو المكوث في مكتبي قليلًا حتى يعود لي مرة أخرى ، وعندما ولج من الباب نادى أحد عساكره الجالسين خلف الباب منتظرين أوامره وكان شابًا ضعيف الجسد يخط وجههُ شريط من الشعر الأسود الخفيف وبذة عسكرية مهلهلة ، ويضع على كتفه بندقية لها حزام أخضر سميك ، فوجه عمرو حديثه له : قهوة الباشا يا عصام والمايه السقعة بسرعة ، فأجابه : حاضر يا باشا .

جلست على كرسي مكتبي ، وبعد دقائق معدودة طرق عصام الباب محضرًا بيديه صِينِيَة من الألومنيوم تغير لونها بفعل الزمن من اللون الفضي اللامع إلى الرمادي الداكن ، وكان عليها فنجان أبيض رسمت عليه وردة زرقاء بداخلها قهوة وكوب ماء بارد تناثرت عليه من الخارج بعض رزازات الماء ، وضع عصام ما بيده على المكتب وعيناه تتفحصني من أعلى لأسفل .

نظرت إليه نظرة مباغتة وقلت له : في حاجة يا عصام ؟ فارتجف عصام واهتزت نبرات صوته : مفيش حاجة يا سعادة الباشا ، أنا بس بشبه عليك وكأني شفتك قبل كده ، يا مرحب يا مرحب ، نورت المكان سعادتك زيك زي الشمس ، شكرت عصام على القهوة ، وشردت في التفكير وأنا أجلس على كرسي مكتبي مستعيدًا بعض الذكريات القديمة أيام الطفولة والدراسة ، وظللت على هذه الحالة حتى أيقظني عمرو خورشيد بعبارات الترحيب التي أطلقها : نورت القسم يا خلود أيوه كده يا جدع فين أيام زمان ، فقلت له : داه نورك يا عمور ، قضينا بعدها باقي اليوم نتبادل رحى الحديث فيما بيننا بعد أن استعدنا ما مضى من ذكريات ، حتى انتهى موعد العمل وانتقلنا سويًا كلًا في اتجاهه إلى بيوتنا .

مرت عدة شهور ، وكان العمل في القاهرة مختلفًا تمامًا عن الفيوم ، فالعمل لا ينقطع لا ليل ولا نهار ، ذات يوم جائتني إخبارية من أحد المرشدين بوسط البلد يقول فيها أنه تمكن من الإمساك بخيط سميك لجريمة جديدة من جرائم البغاء في إحدى المناطق التابعة للقسم ، بطلها شاب يعمل بإحدى دول الخليج العربية ، وهو دائم التردد على إحدى الشقق المفروشة

بأحياء المعمورة الراقية مصطحبًا معه امرأة لا تتغير في كل مرة ، وكان العاشقان منتظمان في الذهاب لشقة بعينها يقضيان معًا الوقت ولا يتجاوزا الساعتين ، يغادران المكان بعدها وكلًا يسير في اتجاهه بخفة وسرعة ، وكأنهما لصان سرقا بعض المتاع وفروا هاربين في غمضة عين ، وقد أخبرني المرشد أنهما على هذا النهج منذ شهر مضى ، وما يفصل بين لقائهما أيام معدودات .

تابعت مع المرشد شحاته تفاصيل المكان بعد أن أخذت منه العنوان بدقة ، وأمرته أن يبلغني إذا عاودا الكرة مرة أخرى ، لم تمضي إلا بضعة أيام ، ليفاجأني شحاته بهاتفه : وصلوا سعادتك وهما الآن يصعدان عبر المصعد ، وأمامهم ساعتان بالتمام والكمال ، فعجل بالمجيء يا سعادة الباشا .

طلبت من شحاته المكوث بجوار البناء دون أن يشعر به أحد ، وأمرته أن يحدثني إذا طرأ جديد ، لم يعصي شحاته أمري ومكث يترقب من بعيد ، أسرعت في طلب عصام وأمرته أن يجهز القوة بأقصى سرعة لكي ننطلق ، وما أن أعطاني عصام إشارة الجهوزية حتى توجهت إلى المكان مباشرةً .

عندما دنوت من المنطقة التي تقع بها العمارة أبطأت

حركتي قليلًا ، ثم أوقفت البوكس خلف أحد المساجد هناك ، وعاودت الاتصال بالمرشد شحاته ليقف أمام العمارة مباشرة ويضع يده على رأسه متظاهرًا بوجود هرشة في رأسه ، فعل شحاته ما أمرته به بعد أن مر بين شجرتين مزروعتين أمام البناء وتوجهت صوبه مباشرةً ، ليسبقنا شحاته في الدخول للبناء ليفتح حوارًا مفتعلًا مع حارس البناء .

ونحن نتبعه ببطيء وهدوء إلى أن وصلنا لباب البناء الذي مكثنا بجانبه قليلا وكان بابا حديديا مشغول بالحديد المزخرش ببعض الألوان المختلفة ، وإن طغى عليها اللون البني ، وكان مظهر البناء نظيفًا شامخًا تتعالى طوابقه لتصل لثماني طوابق متتالية ، تزينت بعض امتدادته الخارجية بالرسومات المزخرشة بالألوان الزرقاء والحمراء والصفراء ، دخلت فوجدت المرشد مسترسلا في الكلام مع حارس البناء ، وكان ما بينهما حوارا طويلا .

ادَّعى فيه المرشد أنه زبون مرسل من أحد المعارف لتأجير شقة مفروشة ، وكان الحارس يستمع إليه وهو جالس على كرسي خشبي ، ويضع رجله اليمنى على اليسرى ماسكًا بيديه

بسيجارة ماركة – LM – إل ام ماركة عالمية ، ويرتدي بذة رياضية بنطالها أزرق وقميصها أبيض ، ووضع على الكرسي الأخر علبة سجائر مع مجموعة مفاتيح ونصف كوب من الشاي ، وعندما رأيته ظنيت أنه مالك العقار وليس من يقف في خدمته .

أنكر الحارس فعل المخبر مبينًا له أنه يخشى الله ، لكن شحاته أخبره أنه لم يأتي بطريقة عشوائية بل جاء بناءً على نصح أحد أصدقاءه ، مقابل 100 في الساعة إلا أن الحارس استنكر وطلب 200 جنيه في الساعة وبعد جدال وافق الحارس مقابل 150 في الساعة ولمدة 3 ساعات .

طلب شحاته مفتاح الشقة مقابل دفع المال إلا أن الحارس طلب من شحاته العودة بعد ساعتين معللًا برغبته في تنظيف الشقة ، لم يكمل المرشد حواره حتى كنت أنا ورجالي فوق رأسهما ، فأُصيب الحارس بالارتباك في باديء الأمر ، لكنه سيطر على نفسه سريعًا ، أبرزت هويتي في وجه الحارس ليعرف من أنا ، وعندما رأى بطاقة الهوية عاد قلقه واضطرابه أكثر قوة من ذي قبل .

فطلبت منه على الفور توجيهنا إلى الشقة المقصودة التي يمارس فيها الرجل والمرأة الدعارة ، أندهش الحارس وأنكر وجود ذلك ، فصفعته على وجهه بكفين ثقيلين ، ثم ركلته بقدمي ما بين رجليه فسقط أرضًا يصرخ من الألم ، وأنا لا أكف عن تعنيفه بألفاظ خادشة للحياء ، رضخ الحارس لطلبي واصطحبنا بعد أن قاما مسرعًا خشية أن أضربه مرة أخرى بقسوة ، وتحركنا برفقته صاعدين نحو الدرج ، وقد توعدت الحارس إنهم بافتعال أي موقف أو أعطى أي إشارة لإثارة انتباه الموجودين داخل الشقة بأني سأحبسه ، صمت الحارس ولم يتفوه بكلمة خشية أن أبطش به .

وصلنا لمبتغانا للشقة التي نبغاها ، وطلبت منه أن يفتحها بهدوء حتى لا يشعر به أحد ، في الوقت الذي دخلنا فيه الشقة ، وقد أشرت عليهم بالمكوث خارجًا على أن أدخل أنا وحيدًا عليهما ، وكان ما يدور بيني وبين نفسي أن أشاهد هذا الفيلم الجنسي الجاري بينهما دون أن يشعر بي أحد ، قبل الوصول لباب غرفة النوم كانت الآهات والآنات تخترق أُذُناي من شدة قوتها ، فكانت المرأة تصيح صيحاتٌ قوية

والرجل يبادلها الصرخة بالصرخة والتنهيدة بالتنهيدة وكأنهما في حلبة مصارعة وفي جولاتها الأخيرة ، فقد انقطعت الأنفاس من شدة التعب ، واختلط صوتهما معًا ، فظننتهما امرأتان تتمخضان من آلم الولادة .

وصلت لباب الغرفة التي كانا يتصارعان فيها ، ووقفت لنصف دقيقة أو أقل فاستحييت مما رأيت ، فكانا الرجل والمرأة كما ولدتهم أمهاتهما عرايا تماما ، وكانا الاثنان في قمة الانسجام الجنسي ، فلم يشعرا بي ولا بدخولي من الباب من شدة الانسجام .

ورحت أقول لنفسي : يا مصيبتاه . . ماذا تفعل يا خالد لو كانت هذه المرأة زوجتك ؟ أو كان هذا الرجل أخوك ؟ أو من أهلك ؟ ماذا كنت فاعل يا خالد ؟ وماذا كنت ستقول لمن معك ؟ وسألت الله الستر على أعراضنا ، بعدها صرخت بأعلى صوتي وكأنني أواجه الهلاك ، فأطلقت صرخة استغاثة هزت الأرض من تحت قدمي من قوتها ، وكنت أقصد منها شيئين الأول : أن أفيق مما أنا فيه وأطرد الشيطان بعيدا ، والثانية : أن أبث الرعب في قلوب العرايا .

فزعا الاثنان وكأن ملك الموت ومعه بعض الملائكة قد هبطوا للتو من السماء ليقبضا أرواحهما ، ضربت المرأة يديها على صدرها وأخذت تردد يا لهوي يا لهوي وأخذت تضرب وجهها باللطمات والضربات الواحدة تلو الأخرى حتى أني لم أكد أرى يديها من شدة سرعتها ، أما الرجل فجحظت عيناه ولم تتحرك حركة واحدة وصمت وكأن على رأسه الطير ، وكان رجالي يقفون خلفي يشاهدون ما ظهر من عورة الرجل والمرأة .

أمرتهم أن يضعوا مفرش السرير حولهما ليسترا ما ظهر منهما ، ثم فتحت خزانة الملابس باحثًا عن شيء يستر المرأة ، فوجدت ديباجًا أحمرًا مطرزًا ببعض الألوان الزرقاء ، فوضعته على المرأة حتى لا يظهر من عورتها شيء ولكي أحميها من عيون الذئاب التي لولا وجودي لأكلهوها بلا رحمة ، ثم أخرجتهما مترجلين من الشقة سيرا على درج البناء إلى أن وصلنا إلى البوكس ، والمرأة لم تكف عن البكاء والعويل ، والرجل صامت لا يتكلم .

ركبت أنا في مقدمة البوكس بجوار العسكري عصام الذي

تولى قيادته ، وركبت المرأة والرجل وباقي أفراد القوة خلفي في الكبينة الخلفية ولم يكف لساني طوال الطريق عن ذكر الله وترديد عبارة « اللهم استرنا تحت الأرض وفوق الأرض ويوم العرض عليك « .

كان كل ما يشغل تفكيري زوج هذه السافلة ، والفضيحة التي ستحل به جراء ما فعلت ، فلم يقترف المسكين أي ذنب ، إلا أنه قد تزوج من هذه الساقطة ؟ فما ذنب أولادها صغارًا كانوا أم كبارًا ، وماذا سوف تكون نظرة المجتمع لهم جراء ما فعلت أمهم ، فالناس لا ترحم ، فلو لها بنت سيقف حالها ولن يطرق أحدًا بابها ، فلن يطلب أحد أن يتزوج بفتاة أمها ساقطة وأن تزوجت فسيظل زوجها ينعتها ببنت الساقطة من لحظة الارتباط بها حتى مماتها ، إما إن كان ولدًا فسوف يتهامس الجميع الصغير والكبير بالإشارة إليه كونه ابن حرام .

رجعت أفكر ثانية . . يا هل ترى ماذا كنت فاعل يا خالد لو كانت هذه زوجتك ؟ أو أمك ؟ يا الله " سترك يارب ، سترك يا رب " ، وبينما أنا راكب جملُ التفكير فإذا بالعسكري عصام يوقظني : فيه إيه يا باشا ؟ ففزعت وسألته

إن كان حدث شيئًا ، فقال لي : منذ أن ركبنا وأنت لم تكف عن قول : يا ساتر يارب ، يا ساتر يارب ، هو فيه حاجة حصلت يا باشا ولا إيه ؟

عنفت عصام عديم الإحساس ببعض الكلمات ، كونه لم يشعر بالكارثة التي حدثت ، فأشرت بسبابة يدي في وجهه وقلت له : يا حمار . . إنت مش بتحس ولا إيه ، لو إنت مكان جوزها كنت هتعمل إيه يا حمار ؟ وكان هيبقى إيه شكلك دلوقت قدام الناس وقدام نفسك . رد عصام بعدما إحمر وجهه خجلًا : كنت ضربتها هي واللي معاها بالنار يا باشا ، تمام وكنت رحت في داهية احمد ربنا واتنيل على عين أمك واسكت ، ما هي دي لا جوزها شايفها ولا حد من قرايبها عارف ، وأهي بتتنيل ، بس ربك ستار ، واحنا عايشين غير بستر ربنا ، فرد قائلًا : آه والله يا باشا .

وصلنا إلى باب القسم وكانت الساعة تشير إلى الخامسة والنصف ، وقد دنى الليل منا معلنًا عن استعداده للدخول في الظلام فالليل أمامنا طويل ، ولن ننام حتى مطلع الفجر ، فيجب أن أأخذ أقوالهما وأقفل القضية قبل حلول الصباح ،

فكانا هما سلواي طوال الليل .

أدخلت الاثنين مكتبي ، ثم أوصدت الباب عليهما حتى لا يراهما أحد ممن هب ودب ويفتضح أمرهما سريعًا سريعًا ، فحاولت أن أسترهما قدر ما استطعت ، تركتهما وذهبت للمرحاض لأقضي حاجاتي ، ثم توضأت وصليت العشاء وكنت أصلي بالعسكر صلاة المغرب وفي الركعة الأولى قرأت قوله تعالى : ﴿ سُورَةٌ أَنْزَلْنَاهَا وَفَرَضْنَاهَا وَأَنْزَلْنَا فِيهَا آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ 1 الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَائِفَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ 2 الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ 3 ﴾ .

وفي الركعة الثانية قرأت قوله تعالى من سورة النورأيضا ﴿ الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَالزَّانِيَةُ لَا يَنْكِحُهَا إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ 3 ﴾ .

فأجهشت في البكاء ولم أستطع السيطرة على نفسي عندما فاضت عيني بالدمع ، حتى فرغت من الصلاة ، طلبت من

عصام فنجانًا من القهوة قليلة السكر فأنا أخشى السكر كما أخشى الكلب المسعور ، فلقد فقدت أمي وعيها أكثر من مرة بسبب دخولها في نوبات السكر التي لم ترحمها ، فهذا المرض لا يرحم الصغير ولا الكبير .

فتحتُ الأبواب الموصودة وكسرتُ حاجز الصمت الذي كان يخيم على المكان ، ثم تحدثت إلى الاثنين وسألتهما لو يودان أن يشربا شيئًا ساخنًا قهوة أو شاي ، طلبت المرأة كوبا من الماء ، وطلب الرجل فنجان قهوة سادة ، ناديت عصام فطلبت منه كوب ماء للمرأة وسكت ، ورفضت أن أحضر القهوة التي طلبها الرجل ، كنوع من أنواع الغتاتة والنطاعة . ثم طلبت منهما أن يجلسا أمامي ليحدثاني بالتفصيل عن علاقتهما الآثمة وكيف ، ومتى بدأت ؟ محذرًا إياهما من الكذب أو التضليل بعد أن ألقيت عليهم كذبة مفادها أني مرتبط ارتباطًا وثيقًا بالعالم السفلي من الجان ، فأستطيع أن أكشف كذبهما وما يخبأناهُ في صدورهما وإن كان مخفيًا مستورًا .

بدأ الرجل بالحديث وهو يرتعد خوفا فعيناه أصبحتا حمراوتان جاحظتان تكاد أن تخرج من الجفون . . أنت تعلم

يا باشا أن السفر للخارج حلم يراود الكثير من الشباب الذي اندثرت أحلامه وطموحة وتحطمت بسبب قلة الإمكانيات والفقر والبطالة ، وأنت تعلم أيضا أن فرص العمل في بلادنا ناضبة ومعدومة ومتعثرة فالكل يبحث عنها ،رغم وجود العقبات ، ناهيك عما يتعرض له الكثير من عمليات النصب والاحتيال من قبل بعض السماسرة وبعض المسئولين معدومي الضمير ، فبحثت عن الراحة التي كنت أراها في وجوه العائدين من الخارج ، فرائحة العطر ولمعان الشعر والملبس المهندم صورة لم تفارق خيالي فجذبتني كما جذبت الكثير منا ، فتمنيت لو كنت مكانهم ، وقد وقع ما تمنيت .

كنا ثلاثة أصدقاء محظوظين لأننا حصلنا على هذه الفرصة للهروب من واقعنا الأليم ومن الفقر المقفع والمشاكل والمشاغل وقلة الراحة وندرة المال إلى عالم الثراء والنعيم ، فاقتنصنا الفرصة ولم ندعها تهرب من بين أيدينا ، سافرت أنا أولًا ، ثم سافر بعدي أصدقائي الاثنين ، وتوالى الناس يأتون من خلفنا من نعرفه ومن لا نعرفه ، وقبل سفري طلب أهلي عقد قراني على ابنت عمي التي كانت تشبهني كثيرا .

رفضت هذا الارتباط كوني مرتبطًا بهدى عاطفيًا فهي بنت الجيران التي لم أرَ غيرها ، فقلت لوالدي هدى من اختارها قلبي يا أبتاه وهي من سأرتبط بها شئتم أم أبيتم ، رفض أبي هذا الزواج رفضاً قاطعًا ، وهددني بالهجر وقطع صلة الرحم بي وبينهم إن لم أعد إلى صوابي ورشدي ، تمسكًا بعادات أهلنا التي توارثناها وعشنا فيها سنوات وأمد ، فعنها لن ولم نحيد .

قابلت هدى وشرحت لها ما حدث ، فبكت وحزنت ، لكنها التمست لي العذر ، فدعت لي بالحياة السعيدة والعمر المديد وتمنت لي التوفيق من الله وودعتني ، بعدها كتبت كتابي على بنت عمي وكان عمري وقتها لم يتجاوز التاسعة والعشرين عامًا ، بعدها أعددت إجراءات سفري وحددت يوم الخميس 22 مايو للانطلاق فأنا أذكر هذا التاريخ جيدًا ، فرحت بسفري رغم عذابي وآلامي ، لأنني سأهرب من واقعي المرير الذي عشت فيه ، بعد أن فقدت فتاة أحلامي وحبي الأول رغمًا عني ، وكانت صورة هدى تلوح في أفقي من وقت لآخر فلم أقدر على نسيانها أو محو صورتها من خيالي .

تحركت الطائرة بي حتى ارتفعت شيئا فشيئا إلى عنان السماء

وقد سيطر الخوف عليَّ من المجهول الذي ينتظرني في الغربة ، إلا أن قدر الله محتوم لا مفر منه ، فلا راد لأمر أراده الله جَلَّ في علاه ، وما إن لامست عجلات الطائرة الأرض مرتطمة بمدرج المطار بفعل الجاذبية مُعلنة عن وصولي لمبتغاي ، عندها سيطرت وحشة الغربه على قلبي ، حتى أمسكت بقفصي الصدري من وهلتها الأولى ورحت أتنفس بصعوبة وكأني أتعرض لحالة اختناق .

وفقني ربي بالعمل في إحدى الشركات الاستثمارية الكبرى ثم في أحد البنوك الكبيرة ، وقد جمعت مالًا وفيرًا في فترة وجيزة ، ومن كثرته سافرت لعدة دول أوروبية للشقاوة والنقاء واللهو واللعب مع هذه وتلك ، وكانت أوروبا بالنسبة لي ضربٌ من الخيال ، فلم يخطر على بالي يومًا أن أذهب إلى أيًا من بلدانها ، فأوربا ما أجملها ! وما أروعها ! فالورود زَينت الشوارع ، فعندما تمشي كأنك بين بساتين وحدائق وليس شوارع .

عُدت مرة أخرى إلى وطني وحاولت الاتصال بهدى التي قتلني شوقًا إليها ، وبعد عدة محاولات أفلحت فيها حققت

مبتغاي وقابلتها ولم تكن قد ارتبطت بعد ، ومن تكرار تعلقي بها لاحظت زوجتي مديحة أني أهملها ، فصارت تختلق المشاكل لي الواحدة تلو الأخرى .

ومديحة بنت عمي تشبهني كثيرا نظرا لصلة القرابة التي كنا تربطنا سويًا ، لكنها أطيب مني قلبًا ، فكل همها في الحياة هي أن تحافظ على بيتها وأولادها فلا طموح ولا أحلام لها إلا سعادتنا .

ذات يوم فاجأتني بمعرفتها بعلاقتي بهدى ، وعلمها بحبي لها ،ومن هنا بدأت المشاكل تزيد وتزيد وكأنها قنابل عنقودية قد فُجرت ، فكانت مديحة تصبحني وتمسيني بسب هدى وبأقبح الألفاظ بعد أن اتهمتها بأنها خرابة بيوت وقليلة أدب وعديمة التربية كونها قبلت كبنت أن تقيم علاقة برجل متزوج ، وذات يوم وبعد أن سافرت إلى الخيلج أجرت مديحة اتصالا بهدى لعنت فيه هدى وأبو هدى كونه لم يقم على تربيتها التربية السليمة .

أثر هذا الكلام على علاقتي بهدى التي نفرت مني وبعدت رافضةً مقابلتي ، إلا أنني لم أيأس فقد بذلت المحاولات

كي أستعديها ، فقد أوهمت زوجتي أن كل شيء بيني وبين هدى قد راح وانتهى ، بعد زواج هدى من أحد جيرانها ، ومع مرور الوقت نست زوجتي ما كان ، فالهدايا التي كنت أهديها إياها كانت كفيلة أن تخرسها مدى الحياة ، لكن كيد النساء عظيم ، ولم تكن مديحة بالسذاجة التي ظنيتها ، فلقد كانت أكثر دهاءً مني ، فقد أوهمتني أيضا أنها نست لكنها لم تنس ، وظلت تقتفي أثري عن بعد .دون أن أشعر .

بذلت المحاولات لأتصل بهدى لكنها لم تجدي نفعًا ، بسبب إصرارها على عدم التواصل معي بعد أن هددتها زوجتي بفضحها بين الأهل والجيران ،كونها تقيم علاقة مُحرمة مع رجل متزوج ، فقد جرحت زوجتي مديحة هدى جرحًا غائرًا ، ومع مرور الوقت ، وأثناء عودتي من إحدى أجازاتي فجأت أن هدى قد تزوجت بالفعل ، لكن حبي لها بقيَ خالدًا لم ينتهي ولم ينقطع ، ورغم زواجها فإني لم أكف عن محاولاتي الاتصال بها إلى أن أفلحت إحدى محاولاتي بعد أن التقيت بها صدفة في أحد الأسواق بعد سفر زوجها ، وتمسكت بالفرصة وأقسمت ألا أتركها كالغريق الذي تعلَّق بقشة وأقسم ألا يتركها خشية الموت .

مرت الأيام وتعددت اللقاءات وتطورت العلاقة بيننا حتى تعدت حدود الكلام ووصلت إلى ما وصلت إليه الآن .

توقف الرجل عن الكلام ، بعد أن فقد كل طاقته ، وبما أن الليل كان طويلا ، وقد أردت أن أستغل كل ساعة فيه بغرض التسلية والاستمتاع بمسماع حكاية جديدة ، وحتى لا أقطع السرد طلبت من هدى طلبت منها أن تستكمل فقلت لها : وأنتِ يا هانم قولي لي إيه حكايتك .

قالت هدى : كنت ذات يوم شاردة الذهن أُطالع المارة عبر نافذتي القديمة في بيت أبي . . التي أخذت مني نصف أوقات عمري ، وبالصدفة رأيت عبدالله ورآني ، وما أثار انتباهي في باديء الأمر صوت الصبية العالي ، فرحت أبحث عن مصدره ، لأجد الصوت يأتي من أمام بيت عبدالله المقابل لبيتنا ، وكان الصبية يهللون أمام سيارة تاكسي وقفت أمام بيتهم ، وكانوا سعداء مبتهجون ، فحدقت النظر أتابع ما يجري ، وإذا برجل يلبس نظارة سوداء يترجل من سيارة الأجرة ليرفع نظارته محدقًا ببصره الذي ثبت أمامي ولم يتحرك .

في ثواني قلت ما به هذا الأبله يحدق فيَّ لتعود ذاكرتي

وتخبرني بأن هذا هو الحبيب الأول الذي طال انتظاره ، نعم لقد حدث ما لم أكن أتوقعه ، حبيبي ظهر من جديد أمام عيني بعد أن فرقتنا الأيام ، جمعنا القدر مرة أخرى وبالصدفة التي كانت خير من ألف معاد ، نزل عبد الله من السيارة مترجلًا وأنا أتابعه حتى احتضن صبيته ودخل بيته بعد أن لاحت ابتساماتنا في الأفق تتعانقان حنينًا وشوقًا للماضي السحيق .

أخذتني المفاجأة التي عشت من أجلها الكثير وضيعت فيها العمر المديد ؟ إنه عبد الله ، وما أدراك ما عبدالله حبيب القلب وعشرة العمر الذي فرَّق الزمان بينهما فيلوح بوجهه بإشارة كاللص تعيها جيدا حتى لا يلتفت الحاضرين لنظراته ، إلا أن الأطفال يسرقونها منها فيقطعون تلك النظرات فتحملهم الفرحة إلى مسكنهم ومستقرهم مهللين سعداء بعودة الأب إلى أحضان بيته بعد سفره الطويل .

تذكرت ما كان بيننا قدر الإمكان من حب وعشق . . طرحته الأيام أرضًا دون أن تبالي به وبما ستخلفه من جرحٍ عميق بالقلوب ، فالعادات والتقاليد منعت هذا الحب أن يكلل بالرابط المقدس - الزواج ، لقد حدثت نفسي التي كنت

أناجيها من وقت لوقت فقلت لنفسي ذات يوم : لقد عاد عبد الله ، ليدب الحياة من جديد في قلبي الذي جف فحرك مجيئه السواكن والجوامد ، فسقت نظراته وروت هذا الحب الذي ذَبُل وضعف بسبب بعده عني ، فدبت الحياة فيه من جديد بعد أن توقف نتيجة السكون بلا حركة ، لم أنسَ لحظة ما كان بيننا رغم محاولاتي المتكررة للنسيان لكن دون جدوى ، فلقد عشنا معا أجمل أيام ولحظات الحياة بكل ما فيها من سعادة وجمال ، فحلمنا معًا أن يكلل الله هذا الحب برابط الزواج المقدس ، إلا أن القدر لم يستجب لنا ، فهوى بنا وطرح كلُ منا في مفترق طريق .

استرجعت واسترجعت ذكريات عمري التي مرت ، وتذكرت عبد الله ابن الجيران ذاك الشاب الأسمر الأنيق المهندم ، ذو الحديث العذب الذي يكسوه بثوب اللباقة والترتيب والنظام ، فرغم أنه كان كثير الكلام والتلويح بإشارات يده ، إلا أن خفة دمه غطت على ثرثته الكثيرة ، فترى وجهه الأسمر يزداد بريقا ولمعانًا من كثرة الضحكات والقفشات ، فتدمع عينيه البنيتين دموعًا عندما يضحك ، فإذا جالسته فستقتنع تمامًا بأنه رجل

خفيف الظل . . متنوع الحديث . . عذب الكلام ، تذكرت ما كان بيننا من حب عميق ، انتهى كما انتهت مثله الكثير من قصص الحب لكنه لم يمت ، لقد وقف القدر حائلا بين الكثير من المحبين الذين مُنعوا من الرباط المقدس لأسباب عدة : على رأسها الفقر وقلة الحيلة ، وتعنت الأهل والأقارب ، والخسة والندالة التي تفشت في مجتمعنا المغيب عن القيم والمباديء التي تتجسد في أن يركض أحد الحبيبين خلف أهوائه ، فمتى حققها فر هاربًا تاركًا جرحًا عميقا في قلب من يحب .

عُدت مرة أخرى من غفلتي وذكرياتي الجميلة إلى واقعي المرير الذي كتبته الأيام والسنين عليَّ حتى أفقني ضجيج هاتفي الذي لم يكف عن الضجيج وأنا لاهية عنه لهوًا في ذكرياتي القديمة ، نظرت له بعدما أمسكته بيدي فإذ بزوجي محفوظ .

- جاوبته بصوت خافت : ألو ، أهلا يا محفوظ .
- فينك يا حبيبتي ليَّ كتير برن عليكي ، انتي مش بتردي ليه ؟
- أبدا يا حبيبي كنت سرحانة فيك .

- تسلميلي يا روح قلبي هو أنا ليَّ مين غيرك ، أنا حبيت أطمأن عليكي وقلقت لما مردتيش .
- متقلقش أنا الحمد لله بخير .
- مالك يا هدى فيه إيه صوتك مش مريحني وطريقة كلامك كمان تقلق .
- أبدا تعبانة شوية فراقك تعبني .
- ألف سلامة عليكي ياروحي ، وأنا والله من يوم ما سافرت ومش بفكر إلا في حاجة واحدة وهي شقة تجمعنا سوا نعيش فيها مع بعض .

استرسل محفوظ في الحديث معي ، بينما تبادلت يدي الهاتف أحركه بين أذني يمينًا ويسارًا ، وأنا مستمرة معه في الحديث ، متمنيةً أن ينهيه بأسرع ما يكون ، وقتها شعرت كأني أتحدث إلى شخص غريب لا أبغضه ولا أكرهه لكني لا أحبه ، أو ربما كان كضيفٍ ثقيل جاء إلينا وأنا غير راغبة في لقائه أو سماع صوته ، اختصرت معه الكلام قدر الإمكان ، كي يتركني وحيدة بعدما تفتحت جروحي القديمة التي عادت لتؤلمني ،

فقد فتح الجُرح مرة أخرى ولكن هذه المرة ببطء رغم مرور الأيام واستمرارها ، إلا أنه مازال يؤلمني وبشدة ، فما إن تحرك الحب القديم حتى تحركت معه كل المشاعر لتسيطر على العقل وتشغله بشيء واحد ألا وهو لقاء الحبيب الأول عبد الله .

بدأت المشاكل بيني وبين زوجي لتتفاقم وتزيد يومًا بعد يوم ، وكان ذلك سببًا كافيًا للعودة مرة أخرى لعبد الله ، كرهت محفوظ وسيرته حتى صوته رحت أبغضه دون سبب ولم أكتفي بذلك بل هجرت الصلاة وذكر الله ، فأذكر أني لم أؤدي الصلاة منذ سنين ، لكن تأنيب الضمير لم يتركني أعيش في سلام ، فكثيرا ما كان يعكر صفو حياتي مع عبدالله ، بل راح يلازمني ويلومني في كل مرة أتحدث فيها إلى عبدالله أو أقابله ، وكان دومًا يحدثني بصوته المحسوس :ويقول لي ما الذنب الذي قد اقترفه محفوظ في حقك كي تعامليه بهذه الطريقة السيئة ؟ وما ذنب زوجة عبدالله وأولاده في خراب بيتهم بسببك ؟ فكانت الحيرة عنوان عريض أقف أمامه كل يوم ما بين وسواس الشيطان وبين ضميري الذي يعذبني .

لكن الشيطان انتصر ورحت أغدو وأروح في بيت أبي

أعاود الحنين للماضي من خلال شرفتي التي هجرتها شهورا وأسابيع ، فرحت أضع يدي عليها بعد أن وسدتها لعلي أحقق مبتغاي ومرادي ، وهو لقاء حبيب عمري عبدالله الذي كنت دومًا أشتاق إليه ، استجاب القدر لتوسلاتي وظهر عبدالله مرة أخرى عندما كان يطالعني من شرفته المقابلة لشرفتي ، ليشير إليَّ أن ألتقيه لم أتردد هذه المرة وكأن شيئا كان يدفعني نحو ها ، جاوبته بالموافقة بعد أن باحت يدي قبل أن تبوح نفسي المهللة فرحًا بلقائه .

عُدت مسرعةً إلى بيت زوجي محدثةً أمه أن تأذن لي بالخروج لأحضر بعض احتياجاتي الشخصية من بعض الأسواق القريبة من بيتنا بعد أن عاهدتها ألا أتأخر ، وافقت حماتي على الفور ونبهتني أن أنجز الوقت سريعًا لربما يتصل محفوظ .

هميت بالخروج وفي لحظات النشوة والفرحة أصابني الارتباك فمرجت ما بين الباب أروح وأرجع ، إلا أنني ودون أن أشعر وضعت قبلة على جبين أم زوجي وخرجت مسرعة بعد أن اندهشت حماتي من فعلتي كونها لم تعتاد ذلك مني ، فهذه هي المرة الأولى التي أقبلها فيها ، وبينما أنا أمشي إذ حدثتني

نفسي بما سأقوله له ؟وأخذت أفكر في عبدالله وفيما أنه مازال يحبني كما أحبه أم لا ؟ أم غيرته الأيام والبعد عني ؟ هل وهل وهل ألف هل جاءت في ذهني حتى جاء اللقاء المنتظر ، فهمَّ بي وهممت به لولا أن رآنا المارة يأكلوننا بنظراتهم التي سقطت علينا كالسهام فقبض على يدي وقبضت يده بعد أبت أن تترك يده .

ناديته حبيبي عبدالله حتى اندفعت بعدها الكلمات التي عبرت عن شوقي له ، وأكملنا الحديث في ذكريات الماضي الجميل ، فأنشد عبدالله كلامه العذب : أنساكِ إزاي وأنتِ في القلب محفورة ومسكونة ، ومكانتي جوا قلبي زي الجوهرة المصونة ، ولما تبصي في عيوني تلاقي حبك مالي جفوني ، ولما تسمعي كلامي على طول هتحسي بآلامي ،لأنك غنوة بردها في كل وقتي ومنامي ، لقد أشتقت إلى كلامه العذب ، ثم صار بنا الحديث حتى وصلنا إلى محطة زواجي من محفوظ عبدالرحمن جارنا ، والذي لم يتذكره عبدالله رغم وصفي له .

لم يتمالك عبدالله نفسه فذرفت دموعه دون أن يشعر ، معلنًا عذابه وغيرته الشديدة من محفوظ الذي ملك اسمي

وجسدي ، فجعله ذلك يتألم بشدة لأن عقله رفض تقبل فكرة زواجي من غيره ، فرحت ألوم عليه كونه هو الرجل ، فهو من تزوج أولا من بنت عمه التي مارس معها ما أحله الله له ، كيف كانت علاقته بها رغم وجودي في حياته ، فراح يقدم لي المبررات وأنه عندما كان يشرع في لقاء زوجته يتخيلني مكانها أنام بجواره .

دارت أسئلة عبدالله عن محفوظ وعمله ، فشعرت بأن قنبلة من السعادة انفجرت في وجهه عندما سمع أن محفوظ يعمل بالخليج وأنا أعيش وحيدة هنا مع أمه ، بعدها تغير كلام عبدالله من الحب العذري إلى تلميحات وإيحاءات جنسية كان أغلبها يدور في فلك العلاقة الحميمة ما بيني وبين زوجي حول عددها ووقتها وطويلة كانت أم قصيرة ، ورد فعلي وفعل زوجي بعد اللقاءات الحميمة .

بدأ عبدالله بالاسترسال عن علاقته الحميمة بزوجته ، وكيف أنه استطاع بمخيلته أن يستبدلها بي وما كان يدور بأدق أدق التفاصيل بينه وبينها ، فمرات كثيرة كنت أخجل مما كان يقصه عبدالله على مسامعي من كلمات كانت صعبة فلم آآلف

سماعها من قبل ، ثم قدم المبرارت وأولها خشية أن يرانا أحد من الجيران أو الأقارب ، ويخبر زوجي أو أحدًا من أهلي ، ثم ختم كلامه بقوله ألا تثقين في حبيبك عبدالله ، عبدالله الذي يغطيك إذا تعريتي ، وهو من يحافظ عليكي من الزمان وغدره ، وهو من يغار عليكي حتى من زوجك ، فوجدت نفسي أوافق بعد إلحاحه الشديد ، لكني اشترطت عليه ألا يلمسني وأن يحافظ على الأمانة التي لم تكن ملك له ، فوافق دون تردد .

عدت إلى بيتي أسترجع شريط اللقاء المسجل في ذاكرتي ، ألوم نفسي وأعاتبها على أنها وافقت على تلبية دعوة ، ورحت أسأل نفسي ، ما الفرق بيني وبين أي امرأة باغية ؟ ما الفرق بيني وبينها هي تمارس الرذيلة وأنا أمارس الرذيلة هي تخون زوجها وأنا أخون زوجي ، ماذا أقول لأبي وأخوتي إذا علموا بهذا اللقاء ؟ ماذا لو جاء قدر الله ومت ، وأنا على فراش الخطيئة ؟ ما ذنب زوجي محفوظ ! وهل أنا رُبيت على أن أخون الأمانة ، فلم تكن هذه نشأتي ، آلاف الأسئلة جاءت على خاطرتي وأصبحت كالسوس الذي ينخر في العظام .

بعد هذا الصراع الطويل وبعد تأنيب الضمير عزمت ألا أبرح مكاني وأن أمكث في بيتي محافظة على الأمانة التي أودعني إياها زوجي محفوظ وهي شرفه وكرامته ، وأخذت أتعوذ بالله من الشيطان الرجيم ووسواسه ، حتى جاء رنين الهاتف الذي أفزعني صوته ، وكان المتصل عبدالله وبعد ترددي أأرد أم لا ؟فقلت في نفسي أرد وأعتذر عن اللقاء لكن الشيطان وسوس فصارحت عبدالله باعتذاري عن الموعد ، إلا أنه راح يتوسلني أن يحضر وراح يقسم بأعظم القسم أن لم أحضر فسوف يقتل نفسه بالانتحار أو السم ، ضعفت أمامه فلبيت طلبه ، وأنا أقدم ساق واأؤخر أخرى .

فتح عبدالله باب الشقة المفروشة مكان لقاءنا ، فراحت عيناي تغوص في كل ركن فيها ، وكانت واسعة فخمة الأثاث كسيت جدرانها باللون الزمردي المحلى ببعض أورق الحائط المزخرفة بالرسومات الملونة ، ذات بهو فسيح وغرفتان واسعتان فُرشت أرضياتها بسجاد يكاد ينطق من جمال ألوانه المتداخلة وعندما هممت بالدخول اهتزت أرجلي بعنف ورحت أرتعش بعدما سيطر عليَّ الارتباك من حيث لا أدري ، فطلبت منه الرحيل وأوشكت على أن أخرج ، لكني سقطت وضعفت بين

يديه بعد أن ضمني إليه ليهدأ من روعي ، فرحت ولم أعد وجمع الشيطان بيننا في الحرام وصار ما صار حتى وقعنا في فخ الرذيلة دون أن يشعر أيًا منا بما حدث فكلما تعمقنا شعرنا باللذة ، وكلما زدنا زادت فشعرنا بشيء عذب جميل استمتعنا به ، وكأننا نفعله لأول مرة في حياتنا .

انتهى اللقاء بعد أن ستر علينا الرحمن ، عُدت إلى بيتي والسعادة تغمرني ، فكنت أسير ماسكةً بشفتاي لذة لما حدث بيني وبينه وكأني فعلت شيئًا محرومةً منه ولم أفعله من قبل ، عدت إلى بيت زوجي ، وما إن فتحت الباب حتى وجدت ضميري واقفًا أمامي يتوعدني ويعاتبني ، فشعرت بحبل غليظ يلتف حول رقبتي يكاد يقتلني خنقًا ، غفلت وكأنني أعيش كابوسا مؤلما لم أفق منه إلا على صوت حماتي تناديني : محفوظ عايز يكلمك يا هدى .

حادثته وكان مرهقًا وصوته مخنوق ، وكأنه شعر بما حدث فجف فمي ورحت أبحث عن ريقي الذي أختفى ، فصمت حتى أراحني بأنه مهموم لأنه يعيش بعيدًا عني ، بعدما بلعت ريقي بعدما غدق الماء في فمي . فحمدت الله في نفسي على ستره .

وكان محفوظ يبلغني بأنه وجد شقة قريبة بمواصفات معقولة لنعيش فيها سويًا في الكويت ، ووعدني بإرسال وثائق السفر عما قريب ، وطلب مني أن أدعو له بتسهيل استخراج الفيزا ، أشعرته بفرحتي المصطنعة من سماع هذا الخبر ، لكني في نفسي تمنيت ألا يتم ، فهنا أعيش بمطلق حريتي أخرج أدخل وقتما أشاء ، لكن هناك في الغربة لن أدخل ولن أخرج فأنا لا أعرف من أدخل ومن وأخرج عليه ، وما أن أنهيت المكالمة حتى أخبرت حماتي بنبأ سفري ، فأبدت سعادة مزيقة شعرت بها ، وراحت تقبلني على وجنتي فرحةً بما سمعت .

فرحت حماتي لكني علمت بما يدور في خلجها فالحسرة بدت على ملامح وجهها مثلها مثل أي أم ، تبكي على من سهرت الليالي من أجلهم حتى وإن غالبها النعاس ، فهي تنام جالسةً أمامه إذا شعر ابنها يوما بتعبٍ أو نصب ، فغلبت حماتي الدموع وانتصرت عليها حتى أجلستها حزينة بسبب تجاهل ابنها لها ، فهي الأصل والفصل وهي التي تعبت وربت وكبرت وعانت وسهرت وخرجت وتحملت ورأفت وعادت وبغضت وسلمت ورأفت وكرهت وفرحت وخسرت من أجل

أطفالها وليس لأحد غيرهم .

لكن هذا عنوان زمننا «عقوق الوالدين « فالابن أو الابنة من سطّروها وكتبوها بإرادتهم الحرة ، فالرجل ذو شكيمة وعزيمة وصوت غليظ ونبرات صوت حادة عندما يحدث والديه ، وحملٌ وديع ورقيق ومطيع عندما يتحدث إلى زوجته ، فيسمع لها بأدب ووقار واحترام ولا يعصى لها أمرا ولا يرفض لها طلبًا .

أما مع والديه فهو يصرخ أكثر مما يتكلم ، يتطاول دون احترام أو تقدير ، فما يشغل الولد اليوم زوجته وأطفاله ، أما أباه أو أمه فلهما الله ، وقد بشر الله هؤلاء بسوء المنقلب في الدنيا والآخرة .

بعد لحظات الحزن والسرحان وحتى لا تفسد الفرحة التي هلت وأتت مسحت الأم دموعها وراحت تصطنع الفرحة لتكذب على نفسها وتظهر ما ليس فيها حتى لا تكسر فرحتي التي لا وجود لها ، هكذا تكون الأم فهي منبع الحب والحنان ومصدر الفرحة والسعادة لأبنائها ، دعت حماتي لنا خشية أن

تفسد علينا الفرحة .

أخبرت عبدالله أني قد عزمت السفر إلى الكويت وأن محفوظ الآن يعمل جاهدًا من أجل إنهائها بالسرعة الممكنة ، طار عبدالله من الفرحة مهللًا بالخبر السعيد ، وطلب مقابلتي ، لكني رفضت ، ثم وافقت بعد أن اشترطت عليه ألا نلتقي في شقق مفروشة كما فعلنا ذي قبل .

ووافق عبدالله فالتقينا في مكان اتخذ من كورنيش النيل مقرًا له ، وكان مكانًا تطوقه الزهور الملونة الأحمر والأصفر والبنفسجي من كل مكان بعد أن اختلطت بعود الريحان الذي فاحت ريحته فكانت في كل مكان ، جلسنا على طاولة بيضاء فرشت بمفرش مطرز باللون الأحمر وطوقتها كراسي بيضاء بوسادة حمراء وضعوا جميعًا على نجيلة خضراء زاهية ، ووضع على مفرش الطاولة الأحمر مطفأة سجائر من الكريستال الأبيض الشفاف ، جلسنا وطلب عبدالله قهوة سادة ، وطلبت أنا عصير برتقال .

وكان هذا اللقاء قبل سفري بأسبوع ، كانت علامات

السعادة مرسومة على وجه عبدالله فرحةً بسفري إلى الكويت ، وشرعنا في شرب ما طلبنا من مشروبات حتى استرسل عبدالله يصف لقاءنا في المرة الفائتة وما حدث فيها من لذة ومتعة ، لم يتوقف عبدالله عن الحديث رغم توسلي إليه بأن يسكت لأنه كان يثيرني بكلامه الجريء .

طلب مني عبدالله أن نمشي لنتجول على كورنيش النيل ، فرفضت خشية أن يرانا أحد ، فأعاد ما قد كنا أغلقناه ، وطلب مني أن نذهب للشقة التي التقينا فيها بالأمس القريب ، رفضت وذكرته بوعده ألا يتكرر ما حدث مرة أخرى ، لم يكف عبدالله عن إثارتي ودغدغة مشاعري وتوسلاته التي لم تتوقف ـ فوجدت نفسي أتحرك معه دون أن أدري إلى أي مكان أنا ذاهبة معه ، دخلنا نفس العمارة ونفس الشقة ، وكأنه قد رتب كل شيء سابقًا ، وكأنه يعلم أني لن أعارضه أو استوقفه عما يريد .

مرة أخرى يجمعنا الشيطان تحت سقف واحد بعد أن نسينا الرحمن الذي لا يغفل ولا ينام ، طال الوقت بنا هذه المرة عن المرة السابقة بعد أن زال الخوف مني ومنه ، فانسجمنا حتى صرنا جسدين في جسد واحد لا يفرق بيننا شيء حتى الهواء لم

يكن له وجود بيننا .

فرغنا من لذتنا بعد أن متعنا بعضنا البعض بالحرام ، ثم جلسنا نتحدث عن السفر وما يأتي من بعده من ترتيبات ولقاءات قد تجمعنا سويًا ، وجاء موعد السؤال الذي دمّر حياتي . . كيف سنلتقي ؟ وأين ؟ فزوجي لا يعرفه ولم تكن بينهما علاقة من قبل ، فبينت له صعوبة الأمر العاصي علينا والأشبه بالمستحيل ، لكن عبدالله لا يعرف المستحيل فقد جاءني بفكرة شيطانية لا أدري من أين جاء بها ! فلم تخطر ببال إنس ولا جان ولا حتى شيطان .

كانت فكرة عبدالله أنه تتلخص في طلبه من أُختهِ أن تجري اتصالا بي وكأنه صدفة لتعلم بعدها بسفري ، ثم تعطيني بعض الأشياء قبيل سفري بيوم أو يومين لتوصيلها لعبدالله بالكويت بعد أن تعطيني رقم هاتفه ، فأطلب من محفوظ أن يجري اتصالًا بعبدالله حتى يتم التعارف بينهما ، وبعدها نكون وصلنا لمرحلة متقدمة في العلاقة تتيح لي وله اللقاء دون أي مشقة أو عناء . . صدمتني خطة عبدالله من خطورتها وصعوبة تطبيقها فهي أشبه بالمستحيل ، وهنا شعرت بخيفةٍ في نفسي ، وماذا لو كشف

محفوظ هذه الحيلة ؟ هل سيقتلني ؟ هل سيفضحني ؟

إلا أن عبدالله راح يذكرني بأيام الشقاوة ، أيام كان يأتي إلى بيتنا لنلتقي في وجود أبي وأمي وأخواتي الصغار ، فهم لم يشعروا يومًا بحضور عبدالله ، فكان عبدالله يأتي إلى بيتنا في ساعات الليل الأولى بعد أن ينام كل من في البيت ، فكنا نلتقي تحت سلم العمارة أو في غرفة المسافرين أو أمام باب الشقة ، ولكن ما كان يجري كان يكفي لمرحلة المراهقة التي لم تصل لحد التجرد من ملابسنا ، اقتنعت أخيرًا بفكرة عبدالله الشيطانية لأني كنت أثق به ثقة عمياء .

فرحت أغوص في أعماق الماضي السحيق وذكرياته الجميلة دون أن أدري حتى طفيت على السطح بعدما ضرب البرد أضلاعي ، ففقت على قشعريرة أصابتني ، فالكلام أخذنا دون أن ندري أننا عرايا ، فسرعان ما أدركنا ذلك بعد أن اقشعر جسدي فلبست ملبسي ولبس ملبسه .

نظرت في ساعتي لأكتشف أن الجلسة طالت والوقت قد مر كالبرق دون أن نشعر به ، فتداركت الوقت وهممت بالوقوف وطلبت من عبدالله الإذن بالرحيل لأن الوقت قد تأخر ، ويجب

أن أعود أدراجي في التو واللحظة حتى لا أثير الشك فيمن حولي .

ركضت وخطوت الخطوات بسرعة في اتجاه بيتي ، وكلما أسرعت في مشيتي انقطع نفسي وازاد وجهي احمرارا ، وزادات نبضات قلبي ضربًا حتى وصلت لباب البيت ، بعدها وقفت قليلا أتنفس بعمق على الدرج لألتقط ما تبقى من أنفاسي حتى لا تشعر حماتي بي ، فاللص إذا ظهرت على زوجة علامات الارتباك كان صيدًا سهلًا في يد الشرطة .

أمسكت بباب الشقة وفتحته ببطء لأجد حماتي تتحدث مع زوجي في الهاتف كعادتها ، أمسكت بالهاتف وتحدثت مع محفوظ بعد أن سألني أين كنتي ؟ فأجابته كنت أشتري بعض الأشياء الخاصة بالنساء ، فلم يعقب لأنه يثق بي ثقة عمياء لا تخترقها الشكوك أو الظنون ، ثم أخبرني بأن أوراق سفري جاهزة وستصل إلى البيت صباح غد .

في اليوم التالي جاءت المستندات وبعدها بدأت في رحلة إنهاء الإجراءات الخاصة بالسفر ، وكان من بينها إجراءات الفيش والتشبيه وتصديقات السفارة الكويتية والقوى العاملة ، ثم

الكشف الطبي والخلو من الفيروسات المعدية ، أنهيت كل شيء في خلال أسبوع ، وانتظرت نتيجة الكشف الطبي ، الذي جاء بعد أسبوعين لتظهر النتيجة أني حامل ، أصبت وقتها بالشلل ، وقلت في نفسي يا مصيبتاه ! يا خيبتاه ! أأنا حامل من عبدالله أم من محفوظ ، من سيكون من بأحشائي هل هو ابن حرام أم ابن حلال ؟ إنها صدمة مدوية تكاد تعصف بي .

زادت حيرتي يومًا بعد يوم ، فلم أخبر أحدا بما علمت حتى أمي ، التي بدأت تلاحظ وحماتي التي لاحظت هي الأخرى وكأني أحمل سفاحًا دون علم أهلي ، ولكنه عذاب الضمير الذي لا ينام ولا يغفل عني رغم توسلاتي إليه بأن يتركني إلا أنه أبى واستعصى أمري .

سألتني أم زوجي ذات يوم . . لماذا تخبيء حملك عني يا هدى ؟ ومما تخافين ؟ فأجبتها ويدي ترتعش ؟ حمل ! من تكون الحامل يا حماتي ؟ قالت لي : أنت الحامل يا هدى ، فعلامات الحمل تبدو واضحة على وجهك وجسدك ، أنكرت ذلك ، لكن حماتي أصرت فمازلت أنكر وحماتي تصر على رأيها ، وكأننا نتصارع شدًا وجذبًا ، وعللت حماتي انكاري

بسبب جهلي بتلك الأمور كونها المرة الأولى ومن هم في سني يجهلون تلك الأمور الجديدة عليهم كليًا .

وكان الفيصل بيني وبين حماتي هو اختبار حمل كان تخبئه أسفل وسادتها ، فطلبت مني أن أجريه في التو واللحظة ، وليكن حكمًا بيننا ، وكنا أول الصباح فدخلت الخلاء ، وأجريت اختبار الحمل ، وكانت النتيجة إيجابية مما يعني أني حامل ، رأته حماتي فأطلقت الزغاريد في كل مكاني ، حتى جاءت أمي مهرولة من شقتها على صوت زغاريد حماتي ، فأخبرتها حماتي بحملي ، فشاركتها الزغاريد بعدها قبلتني وحضنتني ابتهاجًا بهذا الخبر السعيد ، أما أنا فكنت في ذهول تام .

أجرت حماتي اتصالا سريعًا بمحفوظ فأخبرته بحملي ، ففرح حتى كاد يطير من شدة الفرح والسعادة التي بدت واضحة على صوته عندما كان يتحدث في الهاتف ، ثم اتفقنا على تأجيل السفر خشية أن يصاب ما أحمله بمكروه أو أذى . مرت الأيام ومحفوظ قلبه مازال عالقا ومتلهفا شغوفا بانتظار مولوده الأول ، فرأيته يستعجل الأيام ويستحلفها بالله أن تُطوى بسرعة كصفحات الصحف ، كي يرى كل ما يتمناه كل زوج

وزوجة . . ذاك الطفل الصغير الذي يغير مجرى الحياة داخل البيوت فيملاؤها سعادة وبهجة .

ظل قلبه عالق بانتظار مولوده كما قص لي ، أنه في يوم الإثنين وبينما كان غارقًا في عمله ، صدح هاتفه بالرنين العالي ، فكان لا يبالي برنين الهاتف فالغربة كما علمت تعطيك المال وفي مقابله تأخذ منك الصحة والشباب حتى لحظات السعادة تستكثرها عليك ، فتقبض عليها كما يقبض ملك الموت الأرواح بإذن من العلي الفتاح ، فصاحب العمل رجل صعب والخطأ عنده غير مقبول ، والمبررات لا يأخذ بها ، إلا أن جرس الهاتف لا ينقطع عن الضجيح حتى ملأ المكان بصوته المزعج ، فاستسلم محفوظ له واستجاب لندائه .

استفسر من أمه إن كان هناك مكروه قد وقع لي فبشرته بغلامًا ، فاستأثر الفرح قلبه ، وأخذ يكبر ويهلل بذكر الله ، بعدها دخل على صاحب العمل يستأذنه في الذهاب لرؤية أهله ، إلا أنه أبى . فاستسلم زوجي للصبر الذي ألفهُ وصاحبه إنها الغربة لا يستطيع أحد التغلب عليها إلا بالصبر ، رغم حلوها ومرها ، إلا أن مرها يغلب على حلوها الذي

يصبح علقمًا مرًا بين عسل مُصفى ، فالصبر لا غنى فيها لأنه هو الملجأ والحل ، ومخرج الأزمات ، فهو حضن المغترب وضالته ، ولولاه لمات الكثير منهم من القهر والعذاب ، إلا أنه – الصبر – لا بديل عنه ولا يوجد غيره أمام كل من ظل مغتربًا ، الأيام تمضي شاء أم أبى .

مع مرور الأيام والصبر عاد محفوظ لفكرته الأولى وهي البحث عن سكن يجمع بيننا فوجده في أحد المباني القريبة من عمله ، في هذه الفترة لم أنقطع عن مقابلة عبدالله الذي ظل يسافر ويرجع دون أن يأخذ وقتًا طويلا فكان يأتي في كل شهر مرة ، بعدها شرعت في استخراج أوراق سفري مرة أخرى بعد أن أنهاها زوجي وأرسلها لي ، وكنت في إحدى المرات مع عبدالله بعد أن أفتعلت أني بحاجة ماسة للخروج لشراء بعض مستلزماتي الشخصية ، وقد تأخرت في ذلك اليوم حتى أن حماتي كادت أن تموت من القلق عليَّ ، وكان بيننا حوارًا طويلا .

- السلام عليكم يا خالتي .
- وعليكم السلام ، اتأخرت ليه كده يا هدى ، داه الواد اتنحر من العياط ، الظاهر جاع ، ومال وشك كده يا

بنتي مخطوف ومصفر كده ليه .

- أبدا يا خالتي أصلي جايه بسرعة كنت خايف أوي على العيال ، فيا دوبك ركبت مواصلة وخدتها من أول الشارع لهنا جري ، أسكتي يا خالتي تعبت آخر تعب ومن موظف لموظف وشباك لشباك وتحسي الناس مش عايزة تشتغل وكل ما روح لواحد يحدفني لواحد تاني .
- وخلصتي على التعب داه .
- لسه يا خالتي أنا يا دوبك عرفت إيه الورق المطلوب وبكره هكمل .
- ربنا يساعدك يا بنتي ، ويقضيلك المصالح ، ويوقفلك ولاد الحلال .

وضعت يدي على صدري وحمدت الله أن أمرى لم ينكشف ، ولم يراني أحد من الجيران أو الأقارب مع عبدالله ، لحظات قليلة اطمأن بعدها قلبي وخفت ضرباته ، حتى عاودت السرحان والتفكير في الذكريات التي مضت ، فقد كانت هي أُنثي في وحدتي رغم دوران عجلة الذكريات ، فالحب يقتل الوقت

ويقضي على الواقع ، رغم آلامه إلا أنه جميل .

حملت طفلي وذهبت لغرفتي في بيت أبي ، وسارعت إلى نافذتي لأطمئن عبدالله أن كل شيء على ما يرام ، عبر أسير شفتاي وإشارات يدي فكان همسًا بإشارة تعني « أن كل شيء تمام » ، يطمئن عبد الله بعد أن أشار لي بأنه ينتظرني غدا في نفس المكان والزمان ، وما كان مني إلا أن حركت رأسي ليفهم عبدالله الإجابة بنعم ، فينصرف ، ونتقابل في يومنا التالي عند الخارجية لتصديق أوراق سفري ، فقابلته هناك دون خجل أو خوف فلو رآني أحد سأعلل أني قابلته صدفة وهو يساعدني لأنهي أوراق سفري لأنه ذو خبرة بها .

- جلسنا وتحدثنا وقال لي عبدالله حينها : الأجازة بتاعتي خلصت كده ، وأنا لازم أسافر بعد يومين ، سبحان الله الأجازة المرة دي طارت طير من غير ما أحس بيها ، وكأنها يومين مش شهرين .
- الأيام الحلوة كده بتعدي بسرعة .
- أوعي يا هدى تنسي اللي اتفقنا عليه ، أنا هتصل بأختي تجهزلك أي حاجة تكتبلها عليها رقم تلفوني وعنواني ،

وداه رقمي هناك أنا كتبتهولك في ورقة احفظيه وأوعي تنسيه ، داه مفتاح سعادتنا هناك ، اللي هنسترجع بيه ذكرياتنا الجميلة ودلوقت مفيش خوف ولا قلق أجوزتي والحمد لله كله شيء تمام والأمور كلها ميسرة .

- أنساه داه كلام ، انت بتهزر ، أكيد أنا حفظته خلاص .
- أكيد محفوظ هيجبلك خط تلفون هناك ، أول ما يجبهولك تركبيه في التلفون وترني عليَّ على طول ، وأنا مش هرن عليكي غير لما أنتى ترني لربما يكون جوزك في البيت ويعملك مشكلة ، المهم كل ما تكوني فاضية رني إن شاء الله يارب يكون في نص الليل .
- ربنا يخليك يا حبيبي ، وميحرمنيش منك أبدا ، ولا حسك ونفسك في الدنيا يارب .

انتهى اللقاء بعد أن اتفقنا على خطتنا المحكمة لخداع زوجي محفوظ فقد حبكها الشيطان ونسج خيوطها ليقتحم بها بيت زوجي ، وها هي خطة الخيانة قد أعدت ورسمت ، ولم يبقى عليها إلا الوقت لتنفذ ، فغضب الله كان ينتظرني لأنه كثيرا سترني ، وبعد يومين وفي ساعة مبكرة من الصباح بعد الفجر

بقليل جلست على نافذتي في بيت أبي أنتظر أن يخرج لي عبدالله لأودعه ، فذلك اليوم تكرر منذ سنوات عندما سافر أول مرة وودعته دون أمل ، لكن هذه المرة مختلفة عن سابقته ، فالأمل ينتظرنا أن تلتقي بعيدا عن أعين الأهل والجيران .

ظهر عبد الله في النافذة المقابلة لي ، وأشار إليَّ مؤكدًا عليَّ ألا أنسى ما أتفقنا عليه ، فحركت رأسي تأكيدًا أن أعي كل شيء ، فتمر الأيام وأنا أستعجل سفري لألتقي بعبدالله ونعيش أيامنا معًا دون علم زوجي وخروجًا عن طاعة ربي ، فهذا كله لم يطرق على بالي ، فما كان يشغلني هو لقاؤه فقط . إلى أن مرت الأيام وسافرت إلى زوجي الذي كان ينتظرني ، لكن الذي كان ينتظرني شخصان وليس واحد الحبيب والزوج .

- خرجت من صالة الاستقبال في المطار وكان أمامي عربة الحقائب التي وضعت فيها طفلي وحقائبي ورحت أدفعها أمامي ، فيلوح محفوظ بكلتا يديه ، ويولح عبدالله بكلتا يديه وأنا أشير بيدي لهما ، ثم يأتي محفوظ ويحتضني حمد الله على السلامة يا حبيبتي ، ومقبلا طفله ما شاء الله تبارك الرحمن إيه الحلاوة والجمال داه شبهك

يا هدى ، الله اكبر ، إن شاء الله تكوني ارتحتي في الطريق والطيارة متعبتكيش لأن مشكلتها وهي طالعة وهي نازلة تحسي قلبك بيتسحب منك ، وربنا يتوب علينا من السفر وقرفه ، المهم إننا التقينا تاني يا هدى .

- آه طبعا دي أهم حاجة .

استرسل محفوظ في الحديث عن الشقة وعن الإجراءات التي قام بها من أجل أن يحضرني إلى الكويت ، وما بذله من مجهود وجهد ، وما كلفه من عناء وتعب ومصاريف تهد الحيل ، واستمر في ذلك دون انقطاع ، أما أنا فكنت في وادٍ آخر انشغلت به عنه ديناميكيا ، في منطقة لا يستطيع هو أو غيره الدخول فيها إلا بإذني أنا ، فتلك ساحتي الواسعة الرحبة السعة ، فهي فسيحة كبيرة أفعل فيها ما أشاء ووقتما أشاء بلا حسيب ولا رقيب ، شردت الذهن في عبدالله وتخيلت كيف يكون لقائي به في تلك البلد ، ولم أفق إلا من صوت محفوظ .

- يا هدى رحتي فين إحنا وصلنا خلاص .
- أنا هنا ، أصل الطيارة دوختني وسدت وداني .

- ألف سلامة عليكي يا حبيبتي متقلقيش كلها ساعتين تريحي كده وتفوقي من التعب بعد ما تخديلك دوش ، على فكرة بالنسبة للدوش خلي بالك عشان المايه هنا بتنزل من الحنفية مولعة نار .
- هخلي بالي إن شاء الله .
- إيه رأيك يا هدى في الشقة المحندقة . . بس حلوة إن شاء الله ترتاحي فيها ، دي غرفة لينا وغرفة للعيال والصالة زي ما انتي شايفة شرحة وواسعة .
- آه ، ما شاء الله جميلة تسلم ايديك يا محفوظ .
- شوف أمي بعتالك إيه سمنة بلدي ودكر بط وحمام وشوية فريك ، وخالتي كمان بعتالك الوزتين دول ، ودي لفة ادتهاني واحدة صاحبتي قلتلي إديها لأخوها ، قلتلي اتصلي بيه وهو هيجي ياخدها .
- هو عايش هنا أخو صحبتك ، أعرفه أنا ؟
- والله يا محفوظ ما أعرف ، صاحبتي دي معاي من أولى ابتدائي في نفس المدرسة وبقينا مع بعض لغاية لما

خلصنا دبلوم التجارة .

- آه ، إن شاء الله أتصل بيه بعد ما ترتاحي .

استسلمت للنوم دون أن أشعر من آثار الطائرة التي لم أعهدها من قبل ، إلا أن طفلي لم يمهلني الوقت الطويل كي أبسبب صرخاته المستمر ، مر يوم واثنين ولم يجري زوجي أي اتصال بعبدالله ، فأصابني القلق خوفًا من فشل الخطة التي أعددناها بكل إحكام ، وخوفًا من ضياع الحلم حدثت زوجي : ألن تتصل بأخو صديقتي ربما كان أمرًا مهمًا أراده عبر ما حملت له من مصر ، فمصالح الناس مهمة يا محفوظ ؟ ثم طلبت منه شريحة هاتف لي كي أطمئن من خلالها على أهلي وكي أتمكن من التواصل معه ، أدهشني محفوظ عندما أخرج خط الهاتف من جيبه وأعطاني أياه ، فشكرته على ما فعلته ، واستجاب لي وفتح هاتفه واتصل بعبدالله .

- آلو ، الأستاذ عبد الله منصور معايا .
- أهلا وسهلا ، عبد الله معاك ، مين معايا ؟
- معاك محفوظ محمود ، محاسب في شركة عبر البحار ، أنا

من مصر من الجيزة ، كانت أخت حضرتك أرسلت لفة مع المدام من مصر من كام يوم .

- آه حضرتك الأستاذ محفوظ جوز الأخت هدى ، أهلا وسهلا بيك واتشرفنا بمعرفتك يا أستاذ محفوظ ، طايب عنوانك فين ، أنا لازم أعمل الواجب مع أختي هدى ، انت ساكن فين ؟

- ياباشا كلك واجب ، وبارك الله فيك ، أنا هبعتلك العنوان في رسالة وتشرفنا في أي وقت يا باشا .

انتهى الاتصال بين زوجي وعبدالله ، وهنا بدأت الخطوات الأولى من الخطة تنفذ بنجاح ، أخبرني محفوظ بما دار بينهما في الهاتف رغم أني كنت جالسة بجواره أسمع ما يقول ، فقال : سيأتي غدًا الأستاذ عبدالله أخو صاحبتك ليأخذ أمانته ، فسألني محفوظ إن كنت أعرفه ، فأجبته أني لمحته أكثر من مرة في بيت صديقتي لكني لم أكلمه لأن أسرتهم ملتزمة ، بالإضافة إلى أنه يعيش هنا منذ زمن بعيد فإن رأيته لن أتذكره ، فعرضت على محفوظ أن نجهز له طعامًا للعشاء إكرامنا لصديقة عمري ، فلبى محفوظ طلبي دون أي تحفظ ، هنا أدركت أن الخطة تسير

على ما يرام ، فما يفرق بيني وبينه . . هو ليلة فقط .

جاء الغد واضطرب قلبي بهجة برؤية عبد الله وفي حضور زوجي محفوظ ، فكثيرا ما حلمت بتلك اللحظة أن يتعارف عبد الله ومحفوظ ، ويسيران أصدقاء حتى يسهل لنا اللقاء دون عناء ، يأتي عبد الله وهو في كامل أناقته حاملا في كلتا يديه الهدايا القيمة ، حتى يكسر عين محفوظ بها معبرًا عن شهامته ورجولته .

- الأستاذ محفوظ ، أنا وصلت العمارة حضرتك في الدور الكام .
- أهلا وسهلا يا أخ عبد الله ، أنا في الدور الرابع الشقة في مقابل الآسانسير على طول ، أنا في انتظارك أهوه ، أهلا وسهلا يا أخ عبد الله اتفضل اتفضل البيت بيتك ، يا أم علي الأستاذ عبد الله وصل .
- أهلا وسهلا أستاذ عبد الله ، إزي حضرتك .
- أهلا وسهلا يا أخت هدى نورتي البلد ، وتعبتك معايا باللفة اللي بعتتها أختي ، مع إني قايلهم متبعتليش

حاجة كل حاجة هنا كتير .

- العفو يا أستاذ عبد الله ، ما إنت زي أخويا ، وأنا مقدرش أقول لنجلاء لأ على أي حاجة ، ما أنت عارف حضرتك إننا أصحاب من زمان .
- عبد الله : آه ، أنا بصراحة شفتك قبل كده في بيتنا بس مش حافظ شكلي أوي لأني كنت بشوفك على الطاير .
- أيوه أيوه يا أستاذ عبد الله فاكرة حضرك .
- إنتي هتقعدي ترغي ، ومش هتقدمي حاجة للراجل .
- أنا قايمة أهوه ، تشرب إيه يا أستاذ عبد الله .
- متتعبيش نفسك يا أخت هدى ، أنا ماشي على طول .
- يا رجل ميصحش لازم تاخد واجبك ، وبعدين إيه التعب داه كله اللي إنتى جايبك في إيدك .
- داه واجب عليا يا استاذ محفوظ ، هدى دي أختي زيها زي نجلاء بالظبط وانا لو نجلاء مكانها كنت هعمل كده بالظبط ، معلش بس اسمحلي انا مضطر امشي

واتشرف بيك وان شاء الله نشوف بعض مرة تانية .

- محفوظ : لا مينفعش ، لازم تاخد واجبك .
- معلش اسمحلي أصلي معايا واحد صاحبي تعبان في المستشفى ومفيش حد معاه وأنا اللي برحله أقضيله طلباته .
- كلك واجب يا أستاذ عبد الله ، طايب لازم تيجي تتعشا معانا ، إيه رأيك يوم الخميس اللي جاي يكون صابح أجازة ، وناخد راحتنا في القعدة .
- ماشي إن شاء الله على تلفون ، السلام عليكم .

خرج عبد الله من بيتنا واضعًا أولى خطواته على أول الدرج ، فكانا كلانا لدينا رغبة في أن نكرر ما فعلناه ، فكلانا سعيد بهذا اللقاء وكنا منذ وقت طويل مضى ، وخاصة أنا فقد انتظرت هذا اللقاء طويلا .

- آلو ، أهلا وسهلا ، مين معايا .
- واحدة بتحبك .

- يا بنت الذين ، داه رقمك ، وحشتيني يا مجنونة .
- انتى أكتر يا روح قلبي .
- جوزك بيروح امتى الشغل ، وإيه مواعيده في البيت .
- ليه ؟ .
- خلصي بسرعة وبعدين أفهمك ، بص يا سيدي أنا ، هو بيطلع من البيت الساعة 8 الصبح وبيرجع الساعة 2 ، بيتغدى وبينام وبعدها بينزل تاني الساعة 4 على 9 بالليل بيكون في البيت .
- مية مية ، والله وهنعيش يا جميل أحلى أيام .
- يارب ، يا عبده يارب .
- طايب هجيلك امتى البيت .
- تيجي فين يا مجنون أصبر شوية ، لما تتوثق علاقتك بجوزي وأخذ أنا على المكان هنا وأرتب أموري كويس ، أنا مش عايزه مشاكل ، ولا مش عايزه لما أكون معاك أكون متوترة أنا عايز اخد راحة راحتي.

- براحتك يا روح قلبي ، بس متتأخرش عليَّ ، أنا هجنن عليكِ .
- اوعى تتأخر بكره ، مستنيك وعملالك كل اللي بتحبه .
- حاضر يا روحي وأنا أقدر .

يأتي يوم الخميس الذي انتظرته ليأتي عبدالله ليوطد العلاقة بينه وبني محفوظ أكثر وأكثر ، حاملًا في يديه هدايا أخرى لطفلي الصغير وبعض الفاكهة والحلويات وكانت كثيرة ، مر يوم الخميس سريعًا بعد أن تناولنا العشاء معًا وفي وجودي زوجي ، لأستيقظ في اليوم التالي على صوت الهاتف يرن ، وأنا مستغربة من يكون فمحفوظ في العمل الآن ، فيا ترى من يكون ، وإذا به عبدالله يئن من شوقه لي فيفاجأني أنه تحت البيت الآن ويريد أن يصعد للقائي ليخرج ما به من حنين وحتى نستمتع ببعضنا البعض ، فطلبت منه أن يتمهل للغد ، وللغد فقط حتى أرتب اللقاء حتى لا يتعكر صفونا ، مرت ساعات الليل طويلة بطيئة علينا نحن الاثنين فنحن في أشد ساعات الاستعجال ، فقد أردنا أن نلتقي سريعًا ، وبأسرع ما يكون نتعجل بزوغ شمس يوم جديد .

أتذكر هذه الليلة جيدًا فقد خاصمت جفوني النوم ، وأنا أنتظر القيام بمعصية جديدة ولكن يبدو أن هذا اللقاء سيكون قوي هذه المرة ، لأن النار كانت مستعرة ، تكاد تميز من الغيظ لتهلك كل من يقف أمامها ، حتى صدح الديك بالصياح ، فاستيقظ زوجي وأخذ يستعد ليذهب لعمله وكنت أتظاهر بالنوم العميق وأنا أرقبه وأستعجل خطواته وأرجوه أن يرحل الآن ، أخيرا استجاب زوجي لتوسلاتي وخرج ، خرج زوجي وكله ثقة في أني سأحفظ له أغلى ما في الوجود ألا وهو شرفي ، ولا عجب في ذلك فقلب زوجي مطمئن ولا توجد فيه ذرة ريب ولا شك نحوي ، خرج زوجي ليعمل وتركني في بيت الزوجية دون رقيب من أحد إلا الله .

كنت قلقة جدا ومتوترة ، فطلبت من عبدالله الذي كان يقف أمام العمارة أن ينتظر قليلًا حتى أهاتف زوجي كي أطمئن أنه في العمل وأن كل شيء على ما يرام ، فلربما نسي شيئا أراد استرجاعه فينكشف أمرنا ، ورغم قلقي إلا أنني كنت مشتاقة له وأنتظره على أحر من الجمر ، هاتفت زوجي وسألته عما يريد أن يأكله على الغداء ، فطلب مني أن أعد له

بط بالفريك ، ثم أنهيت معه الحديث بعد أن اطمئن قلبي ، ثم سارعت بالاتصال بعبدالله لكي يصعد لشقتي وبسرعة بعدما أعطيه تصريح بالصعود ، فزوجي في عمله وهو لن يأتي ألا بعد ساعات طويلة ، وقتها لم أفكر في شيء إلا في لقاء عبدالله فقط ، لم تمر إلا لحظات وصعد عبدالله ، ففتحت له الباب وأغلقته خلفه ثم أغلقت الباب على طفلي الصغير حتى لا يشعر بشيء ، فكان قد بدأ يتعلم الكلام ، بعدها ارتمى عبدالله في أحضاني وجردني وجردته مما كان يسترنا من كساء ، ودون أن ندري وجدنا أنفسنا ندور في فلك الرزيلة والحرام .

استمرينا على هذا المنوال طويلا ، حتى لاحظ حارس العمارة أن عبدالله يصعد كثيرا وفي أوقات عمل الموظفين إلى داخل العمارة ، لكن الله شملنا بستره ولم يعرف الحارس أن عبدالله يصعد إلى شقتنا .

هاتفني عبدالله ذات مرة يطلب فيها الإذن بالصعود ، فرفضت خشية من يراه أحدفيمسك بنا ويفتضح أمرنا ، إلا أنه كان لديه جميع الحلول لكل ما قد نواجه من عقبات ، ففكر عبدالله في حيلة رائعة ، ألا وهي أن يأخذ رقم هاتف الحارس

من على باب البناء ، ويسأله عن شقة للإيجار متوهمًا عدم معرفته بالمكان فيطلب من الحارس أن يذهب لأول الشارع وينتظره ليوصله للشقة ، فخدع الحارس بهذه الحيلة ونجحت حيلة عبدالله في اقتحام العمارة مرة أخرى دون أن يراه أحد .

- طمأني عبدالله بقوله : متقلقيش يا هدى أنا أخدت رقمه ، وقبل ما يوصل بتصل بيه بقله أنا عايز شقة ايجار ومش عارف المكان تعالى وخدني ، المهم إني أحركه من قدام باب العمارة ، وبعدها أنا باخد الأسانسير وبطلع لغاية الدور الرابع وبنزل دور على السلم عشان محدش يعرف أنا رايح فين .

- يعني في كل مرة تتصل ، ما أكيد هيحفظ صوتك ويعرف إنك بتشتغله .

- لا يا بنتي ، ما أنا في كل مرة بعمل حوار جديد ، مرة عايز شقة ومرة بسأل على عنوان ، ومرة بسأل على واحد في العمارة ، كدا يعني ، مش معقولة كل مرة عايز شقة .

استمرينا على هذا المنوال طويلا دون أن ننكشف ، فلقد كان الرحمن يسترنا في كل مرة ، إلى أن عُدنا إلى مصر في أجازة طويلة ولأن زوجي مشغولا ، فقرر أن يأتي بعدي بشهرين ، فاتصلت بعبدالله وطلبت منه أن يتبعني وبسرعة لكي نقضي شهرين معًا ، حتى حدث ما حدث وجئنا إلى هنا .

كانت قصة طويلة طويلة ، فما أن فرغت المرأة من الحديث حتى خرجت لأقضي حاجتي ، ثم طلبت من الاثنين أن يستريحا ، وأن يذهبا لقضاء حاجتهما إذا أرادا برفقة العسكر ، خرجت هدى ومعها عبدالله بعد أن قيدت يد عبدالله بالحديد ، وتركت يد هدى حرة ، ثم صرخت يا عصام تعالى .

- يا عصام جبتوا الحاجات بتاعت الناس دي .
- حصل يا باشا ، الهدوم والتلفونات وكل حاجة تخص الاتنين ، والواد البواب ، فين ؟
- متلقح بره يا باشا .
- خليه في الحجز ، وخدوا الحيوان داه ولبسه هدومه وارميه جنبه في الحجز لغاية لما أشفله مصيبة .

- وأنتِ ، أنا هطلع بره تكوني سترتي نفسك .
- الله يستر أصلك يا باشا .
- إنت ساكنه فين يا بت ؟ في نفس عنوان البطاقة ولا العنوان داه مضروب يا هانم .
- أيوه ياباشا في نفس العنوان .
- يا عصام روح العنوان داه ، هاتولي جوزها يا بني بسرعة وتعالى .
- تمام يا باشا .

جلست وحيدا أطالع التلفاز في مكتبي ، وبينما أنا مسترخ إذا بزميل الدراسة القديم محفوظ يطرق الباب ويستأذنني في الدخول ، فأذنت له .

- السلام عليكم ، إيه يا خالد .
- ازيك يا محفوظ عامل إيه وإيه أخبارك
- تمام والله الحمد لله .
- استريح ، يا عصام قهوة للباشا بسرعة .

- نظر لي عصام في استنكار وهو يهمس في أذني : قهوة إيه يا باشا اللي عايزني أجيبها .
- قرطت على أسناني وقلت له كلمة قبيحة في أذنه ، انت عارف داه مين يا حمار .
- أيوه ياباشا ، داه جوز الشوشو اللي في الحجز .
- شوشو مين يا ابن التيييت (كلمة قبيحة) الله يخرب بيتك .
- ما إنت قلتلي يا باشا هاتوا من البيت ، فأنا رحت وجبته في إيدي .
- الله يخرب بيت أمك يا عصام .

جلست في صمت رهيب ، وكأن الشلل والخرس لحق بي فأسكتني عن الكلام والحركة ، وسبحت في خضم التفكير ، ورحت أحاور نفسي وأفكر في صديقي الذي يجلس أمامي ، فهو رجل مسالم يعيش في حاله وليس مجرمًا من فئة المجرمين الذين أتعامل معهم ، كانت زوجته الساقطة هدى تقبع خارج الحجرة التي كنا نجلس فيها أنا ومحفوظ ، وقد سيطر عليَّ

الذهول ، وكأن كل ما كان يجول برأسي قد اختفى ، فلم أدري من أين أبدأ ، رغم برودة الشتاء ، إلا أنني كنت أشعر بإرتفاع درجة حرارة مكتبي الذي كان يكسو أرضيته خشب الباركيه ، وكان خاليًا تمامًا من الفوضى ، فكل شيء فيه منظم ، إلا من بعض الملفات الصغيرة ومصحف وكتاب إسلامي بعنوان الحصاد القرآني كنت قد شرعت بالقراءة فيه منذ يومين .

كنت أجلس على كرسي الخشبي المكسو بالجلد السوداء ، أعتصر خجلًا من هذا الرجل المحترم الذي جاء ظنًا منه أني أحضرته كي أتسامر معه ، وأقضي معه بعض الوقت ، تمنيت في هذه اللحظات أن تنشق الأرض وتبتلعني من الحرج ، وبعد تردد عميق ، فتح الله عليَّ ، وبدأت بالكلام رويدا رويدا واستفتحت كلامي بالفكاهة ، فأنا لا أعلم من أين أبدأ .

- صليت العشاء يا محفوظ ، ولا أنت من الجماعة إياهم اللي مش بيركعوها .
- الحمد لله يا خالد ، أنا مش بفوت ولا فرض .
- طايب إيه رأيك في فنجان قهوة من بتاع الحكومة ،

أهوه خد حاجة من حقك اللي عند الحكومة .

- الحمد لله يا خالد المهم أنها مستورة وخلاص ، كله خلصان .
- ونعمة بالله يا محفوظ ، إحنا عندنا مشكلة وعايزين نفكر فيها كويس عشان نعرف نوصل لحل فيها .
- مشكلة إيه كفانا الله الشر .

كنت بين نارين وعذابين اثنين ، عذاب الضمير من حيث عملي وعذاب العقل والعاطفة من صديقي القديم زوج العاهرة التي بالخارج والتي لا يعلم أنها كذلك ، فإن سكت عنها فإنها ستستمر لا محالة فيما تفعل وسيعيش صديقي مع امرأة تتلاعب به ، وإن حدثته عن جُرم زوجته ، وحتى لا أقتله بما فعلت تلك الساقطة ، فما فعلته زوجته في حقه جرمٌ كبير لا يُغفر ، ولو كنت مكانه ما رحمتها وما ترددت لحظة أن أخرج مسدسي وأصوبه نحو كل جزء فيها راميًا إياها برصاصات الرحمة التي لا تستحقها ، فقررت بعد تردد أن أخفي كل شيء وألا أفاتح محفوظ فيما حدث مساعدة مني له وأنا أحتسب أجري عند ربي ولما لا ، فكل شيء بيدي ، ولما لا أستر عِرض صديقي ، فأنا

هنا المتحكم في كل الأمور ، وأن أغلق الموضوع تمامًا برمته .

- والله يا محفوظ يا أخويا إنت عارف إنك صديق عمري من زمان ، وأنا بصراحة مقدرتش أحكي مع أي حد في الموضوع داه .
- خير يا خالد ، قول يا أخي سيبت ركبي حرام عليك .
- مراتي يا سيدي عايز أطلقها ، لأنها شغالة نكد عليَّ ليل ونهار مش مبطلة ، فقلت أبعت عسكري يجيبك عشان تشفلي حل .
- والله يا خالد إنت وقعت قلبي ، الله يخرب بيتك على بيت مراتك ، على فكرة من زمان وأنت عيل غلس ، يعني مناديني في البرد داه وباعتلي عسكري يجيبني من البيت بعد ما سيب ركبي وركب أمي عشان في الآخر تقلي : أنا عايز أطلق مراتي ، يا سلام على برودك يا أخي .
- ضحكت ضحكة صفراء بدون طعم ، أعمل إيه ؟ قاعد فاضي قلت أجيبك نتسلى شوية .

- وبينما نحن نتحدث أحضر عصام القهوة ، ومعه شنطة نسائية وكيس صغير يحمل اسم المولات الشهيرة بدولة الكويت ، اتفضلوا القهوة يا بشوات ، دي حاجات البنت هدى السيد اللي مسكناها يا خالد باشا ، فسقطت كلماته عليَّ كالصاعقة .

- لم أسيطر على نفسي فقلت له : الله يخرب بيت غبوتك يا ابن الكلب يا حمار ، فأحمر وجهي وسكت .

- نظر محفوظ إلى ما بيد عصام ، وقد اهتزت أركانه وانتفض جسده وارتعشت يده وتغير لون وجهه ، دي حاجات مراتي يا خالد ، هدى دي مراتي يا خالد ، هي هببت إيه ؟ قل لي يا خالد مراتي عملت إيه .

- رد عصام بصراحة مطلقة ، مسكناها في شقة مفروشة مع واحد يا باشا .

وقع الخبر على محفوظ كالفاجعة ، فهو في ذهول تام مما حدث وسمع ،بعدها ارتسمت على وجهه علامات الفزع من الفضيحة والعار الذي قد يلحق به وبأسرته ، وكأنني قرأت كل ما يجول برأسه من ذل وشماته وحديث الناس الذي لا ينقطع

في الليل ولا في النهار وكيف سيكون مظهره أمام أهله وجيرانه وأصحابه ، وكنت أردد في سريرتي ، كان الله في عون هذا المسكين فلا حول له ولا قوة ، ماذا يفعل ؟ وماذا سيقول لأولاده ؟ .

وبدأت حديثي رقيقًا أتحسس فيه العبارات وكأني أعمى راحت يداه تطيش في الصحفة باحثًا عن طعام يسد به رمقه وجوعه ، لكن يده لم تجد ما تبحث عنه فظلت تتخبط يمينًا ويسارًا ، إلا أن اليأس لم يدب في صدري بعد ، فرحت مرة أخرى أبحث عن ضالتي ، وكلي أمل في أن أجدها ، وما زاد من ترددي في الحديث ، أن محفوظ لم يتفوه بكلمه واحدة ، فكانت عيناه غائرتان بالدموع ، ما يلبث أن يكفكفهما من حين لآخر بمنديله الورقي الذي كان يخرجه من وقت لآخر ، تاره لأنفه وتارة لعينيه ، كاد محفوظ يبكيني من شدة ما هو فيه ، فهو غلبان مكسور ، كثيرًا ما أكل عليه الدهر وشرب ولا حول له ولا قوة إلا بالله .

فطلب مني محفوظ أن يراها فناديتها فحضرت أمامي ، فصُعقت وكادت أن تهلك عندما رأت زوجها يجلس أمامي ، لقد حدث ما كانت تخشاه وترجو ربها أن يسترها ، لكن الله

يمهل ولا يهمل .

- وضعت هدى نظرها أرضًا بعدما أبى أن يتحرك ، ومحفوظ ينظر إليها باستحقار وأشار بيده إليها وقال : ليه عملتي فيَّ كده يا هدى ، أنا قصرت معاكي في إيه عشان تعملي معايا كده ، أنا كنت بحرم نفسي من كل حاجة عشانك ، يا خاينة ، حسبنا الله ونعم الوكيل .

وفي الحرف الأخير من كلمة الوكيل سقط محفوظ على الأرض سقطة مدوية ، ليفارق بعدها الحياة بخيرها وشرها ، مات محفوظ بعد أن طعنته في أعز ما يملك وهو شرفه ، مات محفوظ من شدة الآلم وخوفًا من الفضيحة ، مات محفوظ ولن يعود للحياة مرة أخرى ، مات وعاشت الخائنة بعد أن قتلته بدم بارد ، فلن يرحمها الله ولن يرحمها القدر ، لأن الديان حي لا يموت .

شعرت بالمرارة والحزن وأنا أقص هذه القصة على الطبيب ، فلقد غمرت الدموع عيني وأخذت تذرفها بلا توقف ، حتى أني فقدت السيطرة على نفسي وطلبت من الطبيب الإذن بالرحيل فقد أجهدني الكلام كثيرا ، رجعت

البيت بعد هذه الجلسة الطويلة ، وأخذت حمامًا دافئًا ونمت بعمق تحت تأثير البرشام الذي كنت آخذه بمعرفة الطبيب النفسي ، فلقد كان للبرشام مفعول السحر ، فكنت أنام ولا أشعر بأي شيء ولا أفكر في أي شيء .

الجلسة الأخيرة

ذهبت للطبيب بعدما ترددت عليه وأكثرت من زياراتي له ، حتى صرنا صديقان دون أي ترتيب بيننا ، حتى أني وثقت به فكان الأقرب إلى قلبي ، فرحت أتعجب من تأثيره السريع عليَّ حتى ظننته ساحرا يخطف الأفئدة التي تميل إليه دون أن تتحكم في نفسها ، وفي هذا اللقاء رحت أبين للطبيب تأثير تلك القصص على نفسي .

هذه القصص يا دكتور هي اللي جعلتني أشك في كل نساء الأرض ، فما رأيته ومازلت أراه عبر الهواتف النقالة ووسائل التواصل الاجتماعي من سوء أخلاق وعصيان وخيانة من نساء لأواجهن ومن رجال لزوجاتهم ، إنما هو فاجعة وكرب عظيم ومرض أصاب الأمة العربية ، التي كان منهاجها الأخلاق والقيم والمباديء والشجاعة ، فلن يكن العربي القديم خائن بل كانت هذه من الصفات الذميمة التي كان يبغضها أجدادنا العرب قديما ، ولم يقتصر الأمر على العرب فحسب بل كان أصحاب الديانات السموية يبغضون الخيانة ويكرهون الخائن مهما كان حجمه أو قوته أو ماله ، فالخائن خائن والزاني والزانية زناة ، لا توجد تعبيرات أو مسميات أخرى لهؤلاء .

- كابتن خالد لم تكن هذه القصص سببًا لما أنت فيه ، بل أن هناك ما أخفيته عني جعلك تسقط في هذا المتسنقع من الريبة والشك .

- زي إيه يا دكتور ، أنا كلمتك بصراحة ومخبتش عليك حاجة .

- الدكتور : أنا طبيب ومرت عليَّ الكثير من الحالات ، فلن تهوي وتصل لهذه المرحلة إلا إذا أصاب الشك قلبك ، فالخيانة وقعت لك وليس لغيرك ، فقص الحقيقة ولا تخفيها حتى نصل سويا لنقطة التقاء معًا .

- في الحقيقة يا دكتور ، ليس لديَّ ما أخفيه .

- الدكتور : اتكلم وفضفض وخد راحتك على الآخر ، أكنك بتكلم نفسك ، كل اللي عايزه منك أنك تقول لي من جرحك في قلبك ؟ هل تزوجت من حبك الأول أم هي التي طعنتك في ظهرك ، تكلم يا خالد .

لحظات من الصمت مرت بي كنت أسترجع فيها سريعا من طعنتني في قلبي ، فرحت أحكي للطبيب عمن أصابتني وجرحتني ، لم تكن ما أحببت يا دكتور وحدها سببا لما أنا

فيه ، بل كانت هناك قصص كثيرة جعلتني أهجر النوم الذي خاصم مضجعي من كثرة التفكير في هذه الظاهرة ، فلقد خُدعت في نساء كثيرات ورجال كُثر ، فرأيت الجار يخون جارته والأم تخون أبنائها وبناتها والأب يخون زوجته والجار يخون جاره والصديق يخون صديقه ، كثيرات كانت أشكال الخيانة التي مرت أمام عيني .

حتى حبي الأول لم يسلم من هذا الدنس ، فأول قصة حب لي في حياتي كانت لإحدى زميلات الدراسة التي عشقتها وأحببتها حبًا جما لكنها هجرتني بعدما ظنت أني فقير معدوم لا أملك المال ، فبهجرها طعنتني في قلبي بخنجر مسموم بلا رحمة ، فراحت تقطع فؤادي بسكين تلم ، فكانت في كل مرة أراها أتعذب وأسيل دما وألمًا وهي لا تبالي ، حتى جاء اليوم الموعد الذي التقيتها فيه وكان صدفة عن طريق أحد وسائل التواصل الاجتماعي ، فعرفت منها أن تزوجت بأحد الشباب الأثرياء كما ادَّعت لأكتشف كذبها فيما بعد ، وأنها تعيش حياة سعيدة معه ، فهو لا يبخل عليها بشيء ويقدم لها كل ما تريد ، كنت أهاتفها كثيرا ، وكانت بخبثها تثيرني من وقت

لأخر كي أحن للماضي ، لكنى أبيت أن أسقط في بئرها السحيق مرة أخرى ، لأني لن ولم أغضب الله مع أي امرأة خلقها ربي على وجه البسيطة لأني أخشاه ولا أخشى أحد سواه .

بينت لها ما كانت تظن خطأً أني فقير معدم ، ووضحت لها ما أملك من أصول وعقارات وأموال ، ناهيك عن عملي ومكانتي التي تبوأتها ، فكنت أقصد من ذلك أن ترى مدى حقارتها وأذكرها بجرمها الخسيس ، فقد تركتني عديمة الإحساس المتجردة من الرحمة وحيدا أنوح منفرًا ، بعد أن سبحت سنوات في بحر العذاب والآلم ، سيرنا معا نسترجع ما كان بيننا من حب تنكره تاره وتؤكده تارة أخرى ، إلا أنني لم أنسى ما فعلت بي ، فكنت قاصدًا من حديثي معها أن أبين لها ما فعلته بي من جُرم لا يُغتفر ، وقد كان لي ما أردت .

جرت الأيام وتبدَّلت أسماؤها وأحداثها إلا أنني لم أثق بها ولا بأي امرأة فكلهن يتشابهن في نكران الجميل والبحث عن المصلحة الشخصية والراحة الذاتية إلا القليل منهن يتمتعن بالعفة والطهارة والنقاء ، وبالصدفة البحتة أكتشفت أن ما كنت أحبه يوما خائنة ، فكانت الساقطة تخون زوجها مع أحد

زملائها ، لأعرف فيما بعد أنه هو الذي ذبحتني من أجله ، فسقاه العاشق من نفس الكأس الذي سقتني منه المرارة والألم ، بعد أن وعدها بالزواج وتنصل منها بحجة أن أهله يرفضون أن يرتبط بها لأنها من الطبقات الدنيا التي تقل عنهم .

عَرفت أيضا أن هذا الشاب كان والده من أحد اللصوص المشهورين في منطقته وأن ماله ومال أبيه جُمع مما جاروا به على الناس ، إلا أن الخائنة كانت قد تعلقت به مثلما تعلقت بها فكانت تتألم كما كنت أتألم ، فمن عدل الله أن الديان لم يغفل ولا ينام فاستدانت بما دانت وانتقم الله منها شر انتقام بعد أن بدل ليلها نهار ونهارها ليل انتظارا للعاشق الذي كان كثيرا ما يهجرها ، فلا يدنوا منها إلا عندما يكون في حاجة لجسدها وليس لها .

فمن خلال عملي وأصدقائي اكتشف وعرفت الكثير عن تلك الفاجرة فكانت هي خائنة لزوجها ، وكان ذلك الشاب خائن لزوجته ، فعاشا سنوات وأمد في الحرام إلى أن أكتشف أبوها ما وقع منها ، فراح يهذبها ويعذبها في آن واحد حتى لا يعلم زوجها بما وقع منها ، لعلها تتوب وترجع لربها ، وتفيق

من غفلتها إلا أنها أبت وواصلت العيش الحرام ليكتشف زوجها مع مرور الوقت ما كان منها من خيانة له ، فيهجرها هربًا من فضيحتها ، فرغم حزني قديما على فراقها إلا أنني حمدت الله أن هذا لم يحدث ، لأن ما عرفت أنها كانت تخادعني منذ قديم الزمن ، فكنت سأصبح أنا الزوج الذي تخونه زوجته وهو لا يعلم عن ذلك شيء ، فالله يشهد أني لم أشك في سلوكها يوما ، منذ أن عرفتها وحتى بعدما تركتها ، تعيش هي الآن ذليلة بين أهلها الساخطين عليها بسبب أفعالها بعدما كشف الله ستره عنها رغم أنه أنذره ولكنها أبت فكان لها ما وقع وكان بإذن من الرحمن .

اعلم يا خالد أن ليس كل البشر على الأرض سواسية بل فيهم الضعيف والقوي والمؤمن والعاصي ، فلما تنظر لطرف وتغد النظر عن الطرف الآخر ، لماذا ترى بعينك الفجار ولا ترى المحسنين ، لماذا ترى الخائنين ولا ترى المستغفرين ، لماذا ترى العصاة ولا ترى المؤمنين ، لماذا تنظر للناس في هذا الزمن وتغفل أباك وأبي وأمي وأمط وجدي وجدتك ، لماذا غفلت عن الصحابة والتابعين ، لماذا غفلت عن الأنبياء والمرسلين ؟ ؟ ؟ أليسوا هؤلاء بشر لم يدنسوا أنفسهم بالخطيئة ولم يقعوا في جب

الرذيلة بل كانوا أتقياء شرفاء .

ولو كانت كل نساء الأرض زناة عصاه ، فهل تتحمل خطيئة ما تظن فيهن ، هل رأيت كل نساء الأرض يخونون ويخطئون ، بالطبع لا ، فلم ترَ ولن ترى كل ما في الرض لأنك مثلهم تخطأ وتصيب ، فكل بني آدم يخطئون لأنهم ليسوا معصومون ، فهم ليسوا بأنبياء ولا مرسلين ولا شياطين .

فاترك الوساوس وتنحى عنها ، وانظر إلى البتول مريم أم المسيح عندما ظن أهلها أنها زانية عاصية عندما حملت بالمسيح نبي الله- عليه السلام- ، الذي أتى الله به كمعجزة يعجز البشر عن الإتيان بها ، فالله يا خالد خلق آدم من عدم ، وخلق حواء من ظهر آدم لتخلق امرأة من رجل على غير المألوف والمعروف ، وكذلك خلق الله المسيح من أم عذراء لا زوج لها ، ليكون خلقه معجزة يتحدى الله بها البشر أجمعين ، فهل كانت مريم عاصية لربها ، حاش لله فقد كانت مريم بتول طاهرة ، أفليس يا خالد أم المسيح من البشر . وسيد البشر سيدنا محمد ﷺ عبد الله ورسوله رمى المنافقون زوجته عائشة بأقبح الأفعال فبرأها الله من فوق سبع سموات ، أأنت أفضل من رسول الله .

الدنيا ما زالت بخير يا خالد ، ومازال فيها الكثير من الأطهار الشرفاء الذين لن يضحوا بشرفهم رغم فقرهم المرير وعيشتهم البائسة ، وإلا قل لي لماذا لم تزني أنت حتى الآن ؟ ! ألست أنت من البشر ، لكن صاحب مباديء تخاف ربك فتترك المعصية اتقاء لله ، ومثلك كثير يا خالد في هذه الدنيا لا يريدون شيئا منها إلا رضا الله ، فإن لم تعالج نفسك بنفسك فلن يعالجك أحد .

سقطت كلمات الطبيب على نفسي فجعلتها ترجع عما كانت تفكر فيه بعدما صاحبتها عناية الرحمن وفضله ، فالتزمت اللجوء إليه وحده إلى أن خرجت مما كنت فيه ، واستمرت حياتي كباقي البشر مع زوجتي وأولادي وأهلي في حب وسعادة .

إلا أنه في إحدى الأيام العصيبة نمت نومًا عميقا من أثر التحقيق في إحدى القضايا التي كنت أحقق فيها حتى أيقظني جرس هاتفي النقال ليوقظني فكان عمرو زميلي من يهاتفني يطلب مني الحضور فورًا إلى مديرية أمن الجيزة لكي أقابل مساعد الوزير مدير الأمن ؛ لأنه سيتم تكريمي من قِبل رئيس الجمهورية في أعياد الشرطة لأنال وسام الشرطة من الطبقة

الأولى مما يعني أني سأنال مكافأة مالية كبيرة وراتب شهري يُضاف إلى راتبي ، فعليَّ الحضور بسرعة إلى المديرية للترتيب مع مدير المراسم برئاسة الجمهورية المتواجد الآن بمكتب مساعد الوزير مدير الأمن .

قمت على الفور ولم تكن زوجتي بالبيت فلقد أخبرتني قبلها بليلة إنها ستبقى هي وأولادي عند أمها لمرضها ، فأذنت لها ، وتحركت على الفور بعدما أنهيت المكالمة مع زميلي عمرو ، وكانت الفرحة هي التي تدفعني ، وعلى الفور توجهت إلى مديرية الأمن وقابلت مدير المراسم مع مدير الأمن وبعض زملائي الضباط لنستلم دعوة حضور للقصر الجمهوري لمقابلة السيد الرئيس .

بعد انتهاء اللقاء رجعت إلى البيت لأسعد زوجتي بعدما عزمت أن أفاجأها بهذا الخبر السار ، وقبل أن أصل البيت هاتفت خالتي التي أخبرتني أن زوجتي في البيت الآن تهذبه قبل أن أعود من عملي بعد المغرب فضحكت وسعدت عندما قالت لي أن الأولاد سيبقون معها اليوم .

وصلت البيت وفتحت باب شقتي ودخلت ، عاقدا العزم أن أفاجأها بوجودي ، وما إن فتحت غرفت نومي حتى رأيت زوجتي عارية تماما في حضن أخي ، لم أصدق ما حدث فأخرجت مسدسي وأطلقت عليهما النار دون رحمة وسقطت أرضا بعدما وضعت المسدس في فمي لأفارق الحياة بعد صراع سريع قصير مع سكرات الموت وارتعدت أثناء خروج الروح من جسدي فاهتز جسدي بعنف لأفيق من نومي العميق عندما وضع ابني الغلس أصبعه في أذني وهو يداعبني . لأدرك العالم الواقعي الذي عُدت إليه ثانية بعد نومي العميق ، فلم يكن هناك تكريم ولا مقابلة وكانت أضغاث أحلام ، ورغم شفائي من مرضي إلا أن لعنة الخيانة ظلت تطاردني حتى في منامي وأحلامي .

انتهت بحمد الله

علي عمر خالد

فهرس

الموضـــــــــــــوع	الصفحة
مُقدِّمة	7
البدايـــــة	13
الجلسة الأولى – سعاد تقتل أطفالها	27
الجلسة الثانية –خائنة تحت الحصار	137
الجلسة الثالثة – محفوظ وهدى	187
الجلسة الأخيرة	283